جامعة الأزهر
كلية أصــول الديــن

فتح اللطيف الوهاب
في
تفسير سورة الأحزاب

للدكتور
نبيل بن محمد بن إبراهيم الجوهري

(الجزء الأول)

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبقدرته وإرادته توجد المخلوقـــات ، وبلطفـــه وخبرته يمسك الله الأرض والسموات ، أحمده ســبحانه علـــى ما أسبغ وأسبل ، وأنعم به علينا وتفضل ، فإذا بنا في شتى نعمه نرفل ، وبستره عيوبنا نجمل .

واشـــهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ذلت له الأنوف ، وعنـــت له الوجـــوه ، وخضعت له الرقاب ، فعزت بذل العبودية له ، واستغنت عن الخلق حين أيقنت بفقرها للخالق .

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله ، بل أكرم عباد الله علـــى الله ، وأحبهم لديه ، أرسله ربه على حين فترة من الرسل ، ليفـــتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، لينير به الظلمات ، ويكمل به مكارم الأخلاق ، ويقيم به الملة العوجاء ، فهدى به الضلالة وبصر به من العمى ، صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم أما بعد :

فإنـــي كنت قد عايشت سورة الأحزاب منذ زمن قراءةً وفهماً ، بياناً وتفسيراً ، فإذا بي أحس وأشعر بعظيم فوائدها حين أعايش معاني آياتها ، وكأن آيات هذه السورة تعالج ما يعيشه المسلمون الآن مـــن

اجتماع أحزاب الكفر المختلفة المتناحرة في فكرها وعقيدتها على الأمة المسلمة لتقضي عليها ، وتستأصل شأفتها ، أو تردها عن دينها ، فيصير الكل في الكفر سواء ، تبين لنا هذه السورة ذلك ، وترشدنا إلى سبيل القوة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، وذلك حتى تنتصر الأمة المسلمة على تلك الأحزاب المجتمعة ، مثلما انتصر المسلمون بقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أحزاب الكفر وقتها ، وكأنها ترشدنا إلى كيفية التعامل مع هؤلاء جميعاً على اختلاف مشاربهم ، كيف نتعامل مع الكفار المعلنين للعداوة ، ومع المنافقين الذين لا يظهرون ذلك ، وإن كانت تنطق بها أفواههم أحياناً ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، ومورد المثل بمضربه ، فتاقت نفسي إلى تفسير هذه السورة بما يميط اللثام عن عظيم فوائدها ، ويكشف النقاب عن بديع أسرارها ، ويبدي لقارئها مكنون جمالها وبلاغتها ، فاستخرت الله تعالى ، واستشرت أهل الخبرة بالقرآن ، فأشاروا عليّ بذلك ، فاعتمدت على الله ، واستعنت به في تفسيرها .

وها أنا ذا أضع بين يدي القارئ الكريم وأمام عينيه ثمرة جهدي ، ونتاج عملي ، الذي هو في الحقيقة محض فضل الله وعطائه لي ، ولطفه كذلك بي ، ولما كان كل ما كتبته وأكتبه ما هو إلا عطاء الله وهبته ولطفه ، فقد سميت تفسير هذه السورة **{ فتح اللطيف الوهاب في تفسير سورة الأحزاب }** .

أســـأل الله ســـبحانه أن يجعـــل عملي هذا ، بل وكل عملي ، خالصاً لوجهه وأن ينفعني به علماً وعملاً وتعليماً ، وأن يبلغني آخره مع التيسير والقبول كما بلغني أوله ، إنه خير مسئول ، وأعظم مأمول ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، وكفى بربك هادياً ونصيراً .

أبو عبد الرحمن نبيل بن محمد الجوهري

منهجي في تفسير السورة :

سيكون منهجي في تفسير سورة الأحزاب بإذن الله تعالى هو المنهج التحليلي ، الذي يقوم على تحليل النص القرآني وفق ما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ ، وما تدل عليه من عموم وشمول ، وذلك وفق الخطوات التالية :

[١] بيان معاني ألفاظ الآية أو الآيات شرحاً وافياً ، وأحاول بيان الفروق الدقيقة بين اللفظ وما يشبهه وهو الذي يعبر عنه بالمرادف بطريقة مختصرة غالباً ، حتى يعين ذلك على فهم الآية أو الآيات ، ومعرفة مراد الله منها .

[٢] التعرض للأساليب العربية في الآية أو الآيات ، لأن من لا يعرف أساليب العرب واستعمالاتهم لهذه اللغة فهو عن معرفة معاني آيات القرآن أبعد ، وبذلك تبرز مواطن الجمال في التعبير القرآني ، وتتجسد بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

[٣] شرح الآية أو الآيات شرحاً وافياً يثلج صدر القارئ الكريم ، ويروي ظمأه فيصدر عنه وقد نهل من معينه الذي لا ينضب أبداً .

[٤] تخريج الأحاديث تخريجاً مفصلاً ومحاولة الحكم عليها ، أو نقل حكم المحدثين ، لا سيما إذا لم تلك الأحاديث في الصحيحين أو أحدهما .

[٥] أحـــاول استنباط الحكم والأحكام ، والعبر والعظات من الآية أو الآيات كل ذلك بعون الله تعالى وتوفيقه .

إلـــى غير ذلك مما يستلزمه التحليل الذي هو منهجي في تفسير هذه السورة .

وقـــبل كـــل ذلك أقدم بين يدي تفسير السورة أموراً تعين على فهمهـــا مـــثل زمـــان ومكـــان نـــزولها ، والمناسبات المتعلقة بها ، وموضوعها ، ونحو ذلك .

بين يدي السـورة

أولاً : زمان ومكان نزولها :

كمـــا اجتمعت أحزاب الكفر واتفقت على حرب وقتال المسلمين بكــل الوســـائل والقضاء عليهم واستئصال شأفتهم قديماً ، ويجتمعون علـــى ذلـــك في كل وقت ، يقول تعالى ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتىٰ يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ [١] ، أقول كما اتفقوا على ذلك ، واجـــتمعوا قديماً وحديثاً، فقد اتفق العلماء واجتمعوا أيضاً قديماً وحديثاً على أن سورة الأحزاب مدنية بالإجماع ، نزلت كل آياتها بلا استثناء بعد الهجرة [٢] .

فقـــد روى ابـــن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في دلائـــل النبوة من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " نزلت ســـورة الأحزاب بالمدينة " [٣] ، وروى ابن مردويه عن ابن الزبير مثله [٤] .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٧) .
(٢) انظر المحرر الوجيز (١٢ / ١) ، والجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١١٣) .
(٣) انظر الدر المنثور (٥ / ١٩٥) ، وفتح القدير (٤ / ٢٥٢) .
(٤) المصدر السابق .

ثانياً : عدد آياتها

وكذلك اتفقوا على أن عدد آيات سورة الأحزاب ثلاث وسبعون آية [١] بل نقل بعضهم الإجماع على ذلك [٢] .

ويشـــير حديث أبيّ بن كعب إلى أنها كانت سورة طويلة تعدل في طولها سورة البقرة ، ثم نسخ كثير من آياتها ، حتى صارت ثلاثاً وسبعين آية فقط ، وأعني بالنسخ الذي وقع فيها نسخ كونها قرآناً يتلى لا نســـخ جمـــيع حكمها ، فقد ذكر مما نسخ منها آية الرجم ، وحكمها ثابت لم ينسخ .

ولا شـــك أنه كان فيها ما نسخ تلاوة وحكماً معاً ، يقول ابن كثير بعد ذكـــره حديـــث أبيّ هذا : وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً [٣] .

روى النسائي في السنن الكبرى [٤] ، وابن حبان [٥] ، واللفظ له ، والحاكم [٦] ، والطيالسي [٧] ، وعبد الله بن أحمد في زوائـــــد

---

[١] انظر عناية القاضي وكفاية الراضي (٧ / ٤٥٧) .

[٢] انظر روح المعاني (١٢ / ٢١٦) .

[٣] تفسير القرآن العظيم (٣ / ٤٤٨) .

[٤] السنن الكبرى ، كتاب الرجم (٦ / ٧١٥٠) .

[٥] موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ، كتاب التفسير ، سورة الأحزاب (/ ٤٣٥)

[٦] المستدرك (٢ / ٤١٥) ، (٤ / ٣٥٩) وصححه .

[٧] مسند الطيالسي (١ / ٤٣٦ ، ٤٣٧) ، وقال محقق الكتاب : إسناده حسن .

المسند [١] ، والبيهقي [٢] ، وغيرهم [٣] من طرق عن زر بن حبيش أن أبيّ بن كعب رضي الله عنه سأله : كم تقدرون سورة الأحزاب من آية ، قال: قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، قال أبيّ : والذي يحلف به إن كانت لتعدل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها آية الرجم " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم" ، زاد عند الطيالسي وغيره : " فرفع فيما رفع " ، قال ابن كثير بعد أن ساق متن الحديث بإسناد الإمام أحمد والإمام النسائي " وهذا إسناد حسن " [٤] .

وروى أبو عبيد وابن الأنباري وابن مردويه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : " كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مائتي آية .. " [٥] .

---

[١] مسند أحمد (٣٥ / ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥) .

[٢] سنن البيهقي (٨ / ٢١١) .

[٣] انظر الدر المنثور (٥ / ١٩٥) ، وفتح القدير (٤ / ٢٥٢) .

[٤] تفسير القرآن العظيم (٣ / ٤٤٨) .

[٥] فضائل القرآن لأبي عبيد ، باب ذكر ما رفع من القرآن بعد نزوله ولم يثبت في المصاحف (/ ١٩٠) ، وانظر روح المعاني (١٢ / ٢١٧) .

ثالثاً : اسمهـا

عرفـت هـذه السورة باسمها المتفق عليه كذلك بين المفسرين وغيرهم : سورة الأحزاب ولم أقف لها على اسم آخر غير هذا الاسم فيما وقفت عليه من مراجع .

وإنما سميت كذلك لحكايتها أحداث غزوة الأحزاب (غزوة الخندق) ، والأحـزاب جمـع حزب ، والحزب الجماعة القوية التي فيها غلظ ، مأخوذ من التحزب ، وهو التجمع . والأحزاب هم الذين تجمعوا لقتال النبي صلى الله عليه وآل وسلم [١] .

---

[١] انظر مفردات ألفاظ القرآن (٢٣١) .

رابعاً : وجه المناسبة

إن وجـــه مناســـبة السورة للسورة التي قبلها أو التي بعدها له أشكال مختلفة ، فالبعض ينظر إلى المناسبة بين خاتمة الأولى وفاتحة الثانـــية ، أو بين فاتحة كل منهما أو خاتمة كل منهما ، وعلى كل فهي مناســـبة جزئية ، والبعض الآخر ينظر إلى المناسبة بين موضوع كل من السورتين السابقة أو اللاحقة ، أو بين السور التي تشترك في أمر بـــارز بيـــنها ســـواء أكـــان ذلك الأمر البارز في بدايتها كالطواسين والحوامـــيم والتسابيح ونحو ذلك ، أو كان بين السور التي تشترك في زمان نزولها كالسور المكية والسور المدنية ، ... وهكذا [١] .

بـــل هناك وجه آخر من المناسبة أغمض وألطف وأدق ، وهو المناســـبة بين مطلع السورة وخاتمتها مروراً بآياتها ، وما تحمله من موضوعات ، ومنهم من يهمل هذا ، ويذكر أبرز موضوعات السورة ووجه المناسبة بين تلك الموضوعات ، وسأعرج بحول الله وقوته على كل ذلك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

مناسبة سورة الأحزاب لسورتي السجدة وسبأ :

الناظر للسور الثلاث المتعاقبة في ترتيب المصحف (السجدة ، الأحـــزاب ، ســـبأ) في عجالة قد يظن من أول وهلة أن هذه السور الثلاث تختلف اختلافاً شديداً من حيث الموضوع الذي بنيت عليه كـــل

---

[١] انظر جواهر البيان في تناسب سور القرآن (ص١٦ ، ١٧) .

سـورة منها ، والمقاصد التي انعقدت عليها ، مما جعل كثيراً من المفسرين لا يذكرون في مطلع سورة الأحزاب علاقتها بسورة السجدة وهكذا في مطلع سورة سبأ ، لكن المتأمل في آيات السور الثلاث يستطيع أن يجد الترابط والتكامل في أشياء كثيرة ، أو بعبارة أخرى يستطيع أن يجد وجوهاً كثيرة للمناسبة بين موضوعات هذه السور الثلاث أذكر منها ما استطعت أن أقف عليه بالبحث في بطون الكتب أو بالتدبر والتأمل بين موضوعات السور الثلاث ، وأهم هذه الوجوه هي :

١ – هذه السور الثلاث تتحدث عن بني إسرائيل بصفة عامة ، وعن اليهود بصفة خاصة ، ففي سورة السجدة حديث مجمل عنهم ببيان أن منهم أئمة يهتدون ، وبأمر الله يهدون ، وهم كذلك يصبرون ، وبآيات الله يوقنون ، لكنهم قلة ، وأكثرهم على العكس من ذلك كما قال تعالى : ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾ [١] ، والله يجازي كل فريق منهم على ما فعل يوم القيامة ، يقول سبحانه ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ [٢] ، وجاءت سورة الأحزاب

---

[١] سورة الحديد (١٦ ، ٢٦ ، ٢٧) .
[٢] سورة السجدة (٢٣ – ٢٥) .

لتعرض لهذه الكثرة الفاسقة الكافرة المعاندة من اليهود من خلال نموذج واحد ، وهو خاص بيهود بني قريظة ، وهذا الصنف من اليهود هو الأكثر الأشهر فيهم ، من حيث صفاتهم وطبائعهم ، فمن ذلك نقض العهود ، غدر وتآمر ، إرجاف في المدينة ، وغير ذلك من صفاتهم الكثيرة والخبيثة ، وعرضت كذلك عاقبة هذا النموذج ، يقول سبحانه وتعالى ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً** ﴾ [١] ، بينما تأتي بعدها مباشرة سورة سبأ لتعرض نموذجاً لهذه القلة المؤمنة من بني إسرائيل في شخص داود وسليمان عليهما السلام والمؤمنين بهما ، يقول جل وعلا ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [٢] .

وبعد ذكر هذين النموذجين بين أنهما في بني إسرائيل ، بل

---

[١] سورة الأحزاب (٢٦ ، ٢٧) .

[٢] سورة سبأ (١٠ – ١٢) .

فـــي كـــل الـــناس قلـــيل ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [١] .

٢ – هذه السور الثلاث تعطي نموذجاً للمؤمن الذي ملأ اليقين قلـــبه ، وتبرزه في صورة واضحة المعالم ، محددة القسمات ، كأنك ترى هذا المؤمن ماثلاً بين يديك بصفاته تلك في كل مكان وفي كل لحظة مهما اختلف عمله ، وتباينت ثقافته ، وتباعدت لغته ، واختلف جنسه .

ففي سورة السجدة تجد المؤمنين يخرون لله سجداً حين يذكرون بآيات الله ، مسبحين بحمد ربهم متواضعين أبداً ، يسهرون ليلهم سجداً وقـــياماً ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، يقول تعالى ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِيـــنَ إِذَا ذُكِّـــرُوا بِهَـــا خَـــرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٢] .

وهـــم في سورة الأحزاب رجال فيهم صفات القوة والجلد التي تعـــبر عـــنها الســـورة من خلال وصفهم بالرجولة ، وهؤلاء الرجال فرســـان الحروب ، يصدقون الله في عهدهم معه ، ولو كان ذلك ببذل الـــروح والمـــال معاً ، ولا تزيدهم الشدائد إلا إيماناً بالله وتسليماً لـــه ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُـــهُ

---

[١] سورة سبأ (١٣) .

[٢] سورة السجدة (١٥ ، ١٦) .

وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (١) .

وهم كذلك في نفس السورة يجمعون كل صفات الخير والفضل والكرم ، فهم مسلمون ، مؤمنون ، قانتون ، صادقون ، صابرون ، خاشعون ، متصدقون ، صائمون ، حافظون فروجهم ، ذاكرون الله تعالى كثيراً ، رجالاً كانوا أو نساء (٢) .

وهم في سورة سبأ أهمل عمل وحرفة وصناعة ، ليسوا عالة على غيرهم خاصة في صناعة السلاح ، فهم في شخص داود وسليمان عليهما السلام ، وكذلك المؤمنون بهم يعملون من الحديد والنحاس كل ما يحتاجون إليه ، وذكر الله من ذلك الدروع السابغات التي يحتاج إليها من يجاهد في سبيل الله ، وغيرها من الصناعات ، يقول تعالى **﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن**

---

(١) سورة الأحزاب (٢٢ ، ٢٣) .

(٢) انظر سورة الأحزاب الآية (٣٥) .

مَّحَارِيـبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [١] .

وبالجملـــة فهم في سورة السجدة عُبَّاد يتهجدون ، وفي تهجدهم يدعون ، وهم في سورة الأحزاب فرسان يحاربون ، وجنود لله يبذلون أرواحهـــم ، وهم في سورة سبأ عمال يتقنون أعمالهم ، وصناع مهرة في صناعاتهم ، وهذا هو منتهى التكامل والتناغم في بيان أمر المؤمن وصفته ، وأنه يدور بين أعلى درجات العبادة الشاقة على النفس بالليل ومصـــارعة الـــباطل ومـــنازلة أهلـــه بقلب عامر بالتهجد بالنهار ، والاعـــتماد على الذات في ذلك بالعمل والصناعة ، يدفعه إلى كل ذلك قلب عامر باليقين والعبادة .

٣ – هـــذه الســـور الثلاث تحدثت عن النبوة بشكل واضح كل سورة حسب حجمها .

ففـــي مطلع سورة السجدة ينفي الله سبحانه التهمة الموجهة إلى رســـول الله صـــلى الله عليه وآله وسلم بأنه افترى القرآن واختلقه ، والـــرد على ذلك بإثبات أنه الحق وأنه من عند الله للإنذار والهداية ، يقول سبحانه **﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾** [٢] .

---

[١] سورة سبأ (١٠ – ١٣) .

[٢] سورة السجدة (٣) .

وقبـــيل نهايتها تنظير بنبوة موسى ، والكتاب الذي أنزله الله عز وجل علـــيه لهداية بني إسرائيل ،يقول تعالى ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [١] .

وفي سورة الأحزاب تجد أمر النبوة واضح المعالم في الأوامر الموجهـــة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والتشريعات المتعلقة بشـــخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، سواء اختص بها أو كانت لـــه ولأمـــته ، والكـــلام عن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ورضـــي الله عنهن ، وكذلك الحديث عن بيوته ، والوعيد الشديد لمن تســـول له نفســـه أن يمس ذاته الكريمة أو أزواجه وآل بيته ، أو دينه ووحيه الذي هو وحي الله تعالى بأي أذى .

أما الأوامر والتشريعات ففي مثل قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [٢] وقوله تعـــالى ﴿ **يَـــا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِـــيمًا** ﴾ [٣] ، وقولـــــه سبحانه ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّـــرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . وَبَشِّـــرِ**

---

[١] سورة السجدة (٢٣) .

[٢] سورة الأحزاب (١)

[٣] سورة الأحزاب (٥٩) .

الْمُؤْمنينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّه فَضْلاً كَبيرًا . وَلاَ تُطعِ الْكَافرِينَ وَالْمُنَافقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه وَكَفَى بِاللَّه وَكِيلاً ﴾ (١) .

أمـا الأمور المتعلقة بشخصه وأزواجه وبيوته فكثيرة جداً في السـورة ، منها قولـه تعالى ﴿ النَّبِـيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمنينَ منْ أَنفُسهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِـيلاً . وَإِن كُنتُـنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسنَات منكُنَّ أَجْرًا عَظيمًا . يَا نسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْت منكُنَّ بِفَاحشَة مُّبَيِّـنَة يُضَـاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلكَ عَلَى اللَّه يَسيرًا وَمَن يَقْنُتْ منكُنَّ للَّه وَرَسُوله وَتَعْمَلْ صَالحًا نُّؤْتهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَـا لَهَـا رِزْقًـا كَرِيمًا . يَا نسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِّنَ النِّسَاء إِن اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبه مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًـا . وَقَـرْنَ فـي بُيُوتكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهليَّة الأُولَى وَأَقمْنَ الصَّلاةَ وَآتينَ الزَّكَاةَ وَأَطعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ليُذْهبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْـلَ الْبَيْت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرًا . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتكُنَّ منْ آيَات اللَّه وَالْحكْمَة إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطيفًا خَبيرًا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الأحزاب (٤٥ - ٤٨) .

(٢) سورة الأحزاب (٦) .

(٣) سورة الأحزاب (٢٨ – ٣٤) .

وقولـه جل وعلا : ﴿ وَإِذْ تَقُـولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَـيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَـى النَّـاسَ وَاللَّـهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْـنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَـوْا مِنْهُـنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً . مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَـرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَـدًا إِلَّـا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١) .

وقولـــه عز اسمه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَـــاتِ عَمَّـاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَـتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِـن دُونِ الْمُؤْمِنِيـنَ قَـدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ لِكَـيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا . لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ

---

(١) سورة الأحزاب (٣٧ – ٤٠) .

مِن بَعْدُ ولا أن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلا أن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [١]

وأما النهي عن إيذائه صلى الله عليه وآله وسلم والوعيد الشديد على ذلك ، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ولا أن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [٢] .

وقوله سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [٣] .

---

[١] سورة الأحزاب (٥٠ ـ ٥٣) .
[٢] سورة الأحزاب (٥٣) .
[٣] سورة الأحزاب (٥٧) .

وتأتي سورة سبأ فتقرر عوداً على بدء ما قررته سورة السجدة بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من نفي التهم عنه في مثل قوله تعالى ﴿ **أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد** ﴾ (١) .

وكمـا نفت عنه صلى الله عليه وآله وسلم الكذب والجنون في أولهـا وبينـت أن ذلـك من اتهام الكفار ، فقد نفت عنه الجنون في آخرها ، يقول تعالى ﴿ **ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ (٢) .

وبيـن هذا وذاك يثبت له النبوة والرسالة ، ويوضح مهمته في ذلـك من الإنذار والتبشير ، ويعلي من شان تلك النبوة وهذه الرسالة بجعلها شاملة للناس كافة ، يقول جل وعلا ﴿ **وما أرسلناك إلا كافـة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (٣) .

٤ – وفـي السور الثلاث حديث عن حال الكافرين في الدنيا ، وما ينزله الله بهم من ذل وعذاب ، ونكال في الحياة الدنيا (٤) .

---

(١) سورة سبأ (٨) .

(٢) سورة سبأ (٤٦) .

(٣) سورة سبأ (٢٨) .

(٤) ذكر بعض العلماء هذه المناسبة مقتضبة بين سورتي السجدة والأحزاب فقط ، صراحة أو إشارة ، انظر : جواهر البيان في تناسب سور القرآن (ص٨١) .

ففـــي سورة السجدة إشارة عابرة ، ووعيد مجمل لما ينزل بهم مـــن العـــذاب فـــي الدنيا فضلاً عن العذاب الأكبر الذي ينتظرهم يوم القيامة ، يذكر ذلك لهم في الدنيا لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويرجعون إلـــى الحق ، يقول تعالى ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾ [١] .

وفي سورة الأحزاب نموذج واضح لهذا العذاب الذي أنزله الله بالمشـــركين فـــي غـــزوة الأحزاب ، وبيهود بني قريظة عقب غزوة الأحـــزاب مباشرة ، يقول سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله علـــيكم إذ جـــاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ [٢] ، ويقول عز وجل ﴿ **وأنزل الذين ظاهـــروهم مـــن أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فـــريقاً تقـــتلون وتأسرون فريقاً .وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديراً** ﴾ [٣] .

وفـــي سورة سبأ نموذج آخر من الأمم السابقة ، حين أعرضوا وكفـــروا فأنـــزل الله بهم أنواع العذاب في الدنيا من إغراقهم بالماء ، وسلب كثير من النعم التي كانت لديهم ، وبين أن ذلك إنما كان بسبب

---

[١] سورة السجدة (٢١) .

[٢] سورة الأحزاب (٩) .

[٣] سورة الأحزاب (٢٦ ، ٢٧) .

كفــرهم ، يقــول سبحانه ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكــل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ [١] .

٥ – فــي الســور الثلاث بيان لحال الكفار يوم القيامة وندمهم على كفرهم ونزول العذاب بهم ، ونحو ذلك .

ففــي سورة السجدة يذكر الله خزيهم وذلهم ، وتمنيهم الرجوع إلــى الدنــيا لعمل الصالحات ، ثم يذكر أنهم لا يجابون إلى طلبهم ثم يعاقــبون علــى كفــرهم أشــد العقاب ، يقول تعالى ﴿ **ولو ترى إذ المجــرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون . ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القــول منــي لأمــلأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . فذوقوا بما نســيتم لقــاء يومكــم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون** ﴾ [٢] .

وفــي ســورة الأحزاب يذكر عذابهم واعترافهم وندمهم ولعنهم من كان سبباً في كفرهم ، يقول سبحانه ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد**

---

[١] سورة سبأ (١٥ – ١٧) .

[٢] سورة السجدة (١٢ – ١٤) .

لهــم سعيراً . خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً . يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربــنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ [١] .

وفــي ســورة سبأ يذكر الله حالهم في الموقف ، واتهام الأتباع للســادة والعكــس ، ثــم الــندم الذي يلحق الجميع حين ينزل الله بهم عذابه ، يقول جل وعلا ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لــولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صــددناكم عــن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾** [٢] .

٦ – فــي الســور الــثلاث يبين الله تعالى محاولة الكفار صد الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل وكل نبي مرسل بمحاولة التشكيك في بعض أقواله ووعوده ، ففي سورة السجدة يحكي القرآن قولهم هذا في سبيل تحقيق ذلك الهدف يقول سبحانه وتعالــى :

---

[١] سورة الأحزاب (٦٤ – ٦٨) .

[٢] سورة سبأ (٣١ – ٣٣) .

وقالوا أءذا ضللنا في الأرض أءنا لفي خلق جديد ﴾ [١] .

وفـــي سورة الأحزاب نموذج واضح لذلك ، حدث من المنافقين وغـــيرهم من الكفار ، يقول سبحانه ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهـــم مـــرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا** ﴾ [٢] .

وفي سورة سبأ إخبار آخر عنهم بفعلهم هذا ، يقول جل وعلا : ﴿ **وقـــال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكـــم لفـــي خلـــق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد** ﴾ [٣] .

٧ – الســـور الثلاث تتناول موقف الناس – أو قل المشركين ، الذيـــن هم أكثر الناس – من الساعة وما فيها من بعث وحشر وحساب وجـــزاء ، ورد القرآن عليهم بالدليل تارة وبالقسم على إتيانها ومجيئها تارة أخرى ، أو ببيان قرب وقتها مرة ثالثة ، وهكذا [٤].

ففـــي سورة السجدة ذكر إنكار الكفار البعث ، يقول تعالـــــى ﴿ **وقالوا أءذا ضللنا في الأرض أءنا لفي خلق جديد** ﴾ [٥] .

---

(١) سورة السجدة (١٠) .
(٢) سورة الأحزاب (١٢ ، ١٣) .
(٣) سورة سبأ (٦ ، ٧) .
(٤) أشار بعض العلماء إلى هذه المناسبة بين سورتي الأحزاب وسبأ فقط . انظر مثلاً : جواهر البيان في تناسب سور القرآن (ص٨٢ ، ٨٣) .
(٥) سورة السجدة (١٠) .

وفـــي آخـــر السورة ذكر سؤالهم عنها على سبيل الاستهزاء ، يقول سبحانه ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين** ﴾ [١] .

وفـــي سورة الأحزاب يتكرر سؤالهم عنها استهزاءً بها ، يقول جـــل وعـــلا ﴿ **يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً** ﴾ [٢] .

وفـــي أول سورة سبأ ذكر القرآن إنكار الكفار الساعة ، وأتبع قولهم برد الله تعالى عليهم ، تأكيداً لوقوع الساعة وما فيها ، يقول الله ســـبحانه ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عـــالم الغيـــب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** ﴾ [٣] .

وكذلك في نفس السورة يذكر الله قولهم في إنكار البعث [٤] ، ثم ينقل سؤالهم عن الساعة على سبيل الاستهزاء مرة ثالثة كما مر في سورتي السجدة والأحزاب .

يقول تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ [٥] .

---

[١] سورة السجدة (٢٨) .
[٢] سورة الأحزاب (٦٣) .
[٣] سورة سبأ (٣) .
[٤] انظر سورة سبأ (٧) .
[٥] سورة سبأ (٢٩) .

هذه بعض وجوه التناسب والتلاقي في الموضوعات بين السور الثلاث ، والمتأمل يظهر له من هذا الباب أكثر من ذلك . والله أعلم .

مناسبة أول السورة لآخرها :

١ – تــبدأ السورة بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتقوى الله ، يقول تعالى ﴿ **يــا أيها النبي اتق الله** ﴾ [١] ، وقبل نهاية السورة بثلاث آيات يأتي أمر الله المؤمنين بتقوى الله ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **يــا أيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ [٢] ، وبذلك يتناسب مطلع السورة ومقطعها [٣].

٢ – تــبدأ الســورة بنهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طاعــة الكافريــن والمنافقين ، وهو داخل في تقوى الله تعالى ، يقول عز وجل ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ [٤] ، ويتكرر ذلك النهي بــنفس اللفــظ بعــد منتصف السورة تقريبا [٥] ، وتأتي آخر آية في الســورة لتبين جزاء وعاقبة المشركين والمنافقين ﴿ **ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ [٦] ، وليس هذا فحسب ، بل

---

[١] سورة الأحزاب (١) .
[٢] سورة الأحزاب (٧٠) .
[٣] انظر جواهر البيان (ص٨٢) .
[٤] سورة الأحزاب (١) .
[٥] سورة الأحزاب (٤٨) .
[٦] سورة الأحزاب (٧٣) .

عرضـــت الســـورة نموذجـــاً حياً لمن أطاع الكافرين والمنافقين عام الخندق ، وما كان من سوء عاقبتهم ، وضياع دينهم ودنياهم .

٣ – فـــي أول السورة يأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم باتباع ما يوحيه الله إليه فيما أمر ونهى وطاعته في ذلك ، ﴿ **واتبع ما أوحي إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ [١] ، وفي آخر السورة بيان ثواب تلك الطاعة وعاقبتها ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فقد فـــاز فـــوزاً عظـــيماً** ﴾ [٢] ، وبعـــد ذلك مباشرة وفي آخر آيتين من السورة ، يبين الله سبحانه موقف الناس من التكاليف الشرعية التي هي وحـــي الله إلـــى المكلفيـــن ، وعاقبة كل ، ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على الســـماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنا وأشفقنا منها وحملها الإنســـان إنـــه كـــان ظلوماً جهولاً . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشـــركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [٣] .

٤ – وهـــناك علاقة قوية بين أول السورة وآخرها ، وهي وإن كانـــت خفـــية مســـتترة في ثنايا أسلوب القرآن ، إلا أنها لطيفة جداً ، يســـتطيع المتأمل في استهلال السورة وخاتمتها أن يتبين تلك العلاقة ، ويقف عليها، فهذا البدء الذي كأنه استجاشة لرسول الله صلى الله عليه

---

[١] سورة الأحزاب (٢) .
[٢] سورة الأحزاب (٧١) .
[٣] سورة الأحزاب (٧٢ ، ٧٣) .

وآله وسلم ليتحمل القول الثقيل الذي ألقي إليه من ربه ، والعمل الثقيل بتكليفه ، سبحانه ، ففرَّغ قلبه ووعيه ، بعد أن هتف به ﴿ **يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ [١] فأمره بالتقوى ، وتحمل تبعاتها ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين ثـم ولـى ذلك الأمر أمر آخر بالمعنى الثابت في طريق الله ، وعلى مـنهج الله ووحـيه ﴿ **واتبع ما يوحى إليك من ربك** ﴾ [٢] ، كل ذلك كـان استجاشـة لرسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحثاً له ، وتهييجاً ، حتى يقبل على الأمر الخطير بهذه العزمة الماضية في الله ، مواجهـاً القوم بهدم أرسخ عوائدهم ، وأدورها على ألسنتهم ، ثم جاء خـتام السورة تصويراً وتجسيداً لعظم المسؤولية ، التي ألقاها الله على عـاتق الإنسان ، والتي أجفلت [٣] منها السموات والأرض والجبال ، وكأنـه يقـول لحبيـبه ورسـوله صلى الله عليه وآله وسلم في نهاية المطـاف : إن هـذه الجسـامة هي مسؤولية الإنسان عامة فما بالك بمسـؤولية الإنسان النبي، الذي هو خلاصة الإنسان ومحضه ؟ لاشك أنها أعظم وأجسم [٤] .

---

[١] سورة الأحزاب (١) .

[٢] سورة الأحزاب (٢) .

[٣] أجفلت أي هربت وولت . انظر : اللسان (جفل) .

[٤] من أسرار التعبير القرآني (٤١٠ ، ٤١١) بتصرف .

خامساً : موضوع السورة

يـــرى الـــبعض أن الموضـــوع الأســـاس للسورة هو عرض وتصـــوير لجوانب حياة المسلم ، لا سيما حياة الرسول الأعظم ، وما يحيط به ، وما يعرض له فيها [١] .

بيـــنما يرى البعض الآخر أن موضوعها الأصيل هو الذب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أوذي به من ألوان الإيذاء ، قتال الأحزاب له ، ومعاونة المنافقين لهم ، وطعن المنافقين في نكاحه صـــلى الله عليه وآله وسلم بزينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها ، وطلـــب أزواجـــه صلى الله عليه وآله وسلم ، ورضي الله عنهن منه الـــزيادة فـــي الـــنفقات ، واشـــتغال بعض الصحابة رضي الله عنهم بالأحاديث في بيته صلى الله عليه وآله وسلم ، ونحو ذلك مما تأذى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٢] .

بينما يرى فريق ثالث أن السورة تدور أحداثها في زمان واحد ومكـــان واحـــد ، مع كونها تدور حول موضوع واحد أساس كذلك ، فأحداثهـــا وقعـــت مـــا بين أول السنة الثالثة وآخر السنة السادسة في المديـــنة المـــنورة ، وموضوعها الأساس هو إبراز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة المسلمة، والدولة المسلمة الناشئـــة التي لما

---

[١] انظر : من أسرار التعبير القرآني (ص ٣٩) .
[٢] المصدر السابق (ص ٤٠) .

يشـــتـــد عودهـــا بعـــد ، بـــل وتثبيت تلك الملامح في حياة الأسرة والجماعـــة ، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ، وتعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها ، وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي الجديد فتبدو بذلك وحدة السورة إلى جانب وحدة الزمن ، ووحدة المكان التي تربط بين الأحداث والتنظيمات ، التي تناولتها السورة [١] .

والـــذي أميل إليه أن موضوع السورة هو دفاع الله عن أنبيائه ورسله عامة ، ورسولنا صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ، وذلك حين محاولـــة أعـــداء الله إيذاءه ، أو حين وقوع الإيذاء منهم ، يستوي في ذلـــك الإيـــذاء الحسي بالحرب ونحو ذلك ، والإيذاء المعنوي بإلصاق الـــتهم به صلى الله عليه وآله وسلم ، أما الحسي فيرده الله ويدفعه كما دفـــع الأحزاب واليهود وغيرهم ، وأما المعنوي فيبرئه الله ويدفع تلك التهم عنه .

وســـواء أكان موضوعها الإيذاء ، أم دفع الله هذا الإيذاء ، ففي هـــذا إشـــارة إلى إرث هذه الأمة من ذلك كله ، من اجتماع الأحزاب علـــيها لإزالتها من الوجود ، واجتماع الكفار والمنافقين على إلصاق الـــتهم بها وبدينها حتى يبتعد الناس عن هذا الدين ، وفيه إشارة كذلك إلى إرث هذه الأمة من دفاع الله عنها .

---

[١] انظر : في ظلال القرآن (٥ / ٢٨١٨) .

يؤيد ما قلته أمور منها :

١ – تكرر لفظ الإيذاء في السورة ، وأكثره متعلق برسول الله صـــلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يســـتحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فسئلوهن من وراء حجـــاب ذلكـــم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله** ﴾ [١] ، ﴿ **إن الذيـــن يـــؤذون الله ورســـوله لعنهم الله في الدنيا والآخـــرة وأعـــد لهـــم عذاباً مهيناً** ﴾ [٢] ، ﴿ **لا تكونوا كالذين آذوا موسى** ﴾ [٣] ، ناهيك عن المواطن الكثيرة التي أشارت إلى ذلك دون ذكر لفظ الأذى أو الإيذاء .

٢ – تكـــرر ذكر دفع الله الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وســـلم والمؤمنين معه مسنداً إلى الله عز وجل ﴿ **يا أيها الذين آمـــنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجـــنوداً لم تروها** ﴾ [٤] ، ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خـــيراً وكفـــى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعـــب**

---

[١] سورة الأحزاب (٥٣) .
[٢] سورة الأحزاب (٥٧) .
[٣] سورة الأحزاب (٦٩) .
[٤] سورة الأحزاب (٩) .

فـــريقاً تقـــتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ [١] .

٣ – نهـــى الله المؤمنيـــن عن مماثلتهم اليهود في إيذاء الرسل واتهـــامهم إياهم ، لأن الله يبرئ ساحتهم ويدفع الأذى عنهم **﴿ يا أيها الذيـــن آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾** [٢] .

٤ – التعبير بالأسوة بدل التعبير بالقدوة ونحوها في قوله تعالى **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخـــر وذكر الله كثيراً ﴾** [٣] ، والأسوة [٤] في دلالتها اللغوية تدور حول إزالة الألم والعلاج ، والأسى [٥] الحزن ، فكأن الأسوة قدوة في مجـــال إزالـــة الألـــم الناتج عن الأذى ، ودفع ذلك الأذى ومعالجته ، ونحـــو ذلـــك [٦] . إلـــى غير ذلك من الأدلة والقرائن التي تؤكد ما رجحته بالنسبة لموضوع هذه السورة الكريمة ، والله أعلم .

---

[١] سورة الأحزاب (٢٥ ـ ٢٧) .

[٢] سورة الأحزاب (٦٩) .

[٣] سورة الأحزاب (٢١) .

[٤] فعلها واوي (أسو) .

[٥] فعلها يائي (أسى) .

[٦] انظر : معجم مقاييس اللغة (أسو – أسى) واللسان (أسا) ، ومفردات ألفاظ القرآن (٧٦ ، ٧٧) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ٣٩) .



قواعد وأسس المنهج الإيماني

قال تعالـــى :

﴿ يـــا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كـــان علـــيماً حكيماً . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

أولاً : ***معاني المفردات*** :

النبي : بغير همز على وزن فعيل ، مأخوذ من نبا إذا ارتفع ، أو مـــن نبأ ، وأصله على ذلك نبيء ، خففت همزه لكثرة الاستعمال ، وعلى كلا المعنيين فهو إما بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول .

فعلـــى كونه من النُّبْوَة بمعنى الرفعة إذا كان بمعنى فاعل فلأنه رافع كل من صدقه وتبعه إلى حيث يحبه الله تعالى ، وإذا كان بمعنى مفعـــول ، فلأن الله رفع مكانة كل نبي على سائر قومه ، ورفع مكانة نبيناً صلى الله عليه وآله وسلم ودرجته على سائر الأنبياء ، فهو بذلك مفضل على سائر الناس برفع منزلته .

وعلـــى كونه من النبأ بمعنى الخبر المفيد فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ، إذا كان بمعنى فاعل أي منبئ عن الله جل وعلا كمـــا قال تعالي **﴿ نبـــئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾** [1] وإذا كان بمعنى مفعول

---

[1] سورة الحجر (٤٩ – ٥١) .

أي منبأ من قبل الله عز وجل . يقول سبحانه وتعالى ﴿ **قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ [١] ، ويقول جل وعلا ﴿ **قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير** ﴾ [٢] ، وأصل النبأ في استعمال اللغة هو الإتيان من مكان إلى مكان [٣] .

وأغلب العلماء على أن اشتقاقه من نبأ وأن أصله نبيء بالهمز خفف همزه لكثرة استعماله ليشمل القراءتين معاً ، فقد قرأ نافع (النبيء) و(النبوءة) بالهمز في القرآن كله ، وبقية القراء السبعة بإبدال الهمز ياءً وإدغامها في الياء إلا قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فسئلوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً** ﴾ [٤] فقد رواه قالون عن نافع بالياء كالجمهور .

---

[١] سورة التوبة (٩٤) .

[٢] سورة التحريم (٣) .

[٣] نص على ذلك ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٥ / ٣٨٥) (نبأ) .

[٤] سورة الأحزاب (٥٣) .

تفسير الســـورة



وفي ذلك يقول الشاطبي رحمه الله [١] :

وجمعاً وفرداً في النبيء وفي النبو ءة الهمزَ كلٌّ غيْرَ نافع إبْدَلاَ

وقالون في الأحزاب في للنبي مع بيوت النبي الياء شدد مبدلا

وإذا ورد لفظ النبي في القرآن معرفاً بأل فالمراد به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وإذا ورد منكراً أو معرفاً بالإضافة فالمراد غيره [٢]

والتقوى : التقوى اسم من وقى بمعنى الاتقاء ، وأصله وقيا فأبدلت الواو تاء ، والياء واواً ، والمصدر منه وقاية ، وكل مفردات هذه المادة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره ، وذلك بقصد صيانته وحفظه مما يؤذيه ويضره مثل قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " اتقوا النار ولو بشق تمرة " [٣] ، أي ادفعوا عن أنفسكم عذاب النار بالطاعات وإن كانت قليلة كشق التمرة .

---

[١] حرز الأماني (٣٧) .

[٢] انظر في معاني هذه الكلمة : معجم مقاييس اللغة (نبو – نبأ) ، لسان العرب (نبأ – نبا) ، مفردات ألفاظ القرآن (٧٨٨ – ٧٩٠) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٦٧٨) ، وغير ذلك .

[٣] رواه البخاري في كتاب الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، رقم ١٤١٧ ، وكتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ، رقم ٣٥٩٥ ، وكتاب الأدب ، باب طيب الكلام رقم ٦٠٢٣ ، وكتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، رقم ٦٥٤٠ ، وباب صفة الجنة والنار ، رقم ٦٥٦٣ ، وكتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٧٥١٢ ، ورواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة رقم ١٠١٦ ، ورواه غيرهما .

والــتقوى جعــل الــنفس فــي وقاية مما يحذر ويخاف أو هي الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته ، وإذا أطلقت التقوى في القــرآن أو فــي لسان الشرع ، فالمراد بها تجنب عذاب الله تعالى ، وذلك بامتثال أوامــره واجتــناب نواهيه ، وهذا المعنى هو المراد عند إطلاق لفظ التقوى [١] .

لفظ الجلالة { الله } : اختلف العلماء فيه قديماً وحديثاً أهو اسم أو وصــف ، جامد أو مشتق ، علم جنس أو علم شخص ... إلى غير ذلــك ممــا اختلفوا فيه بالنسبة لهذا اللفظ الشريف ، وكأنهم كما يقول أبو البقاء الكفوي" كما تاهوا في ذاته وصفاته لاحتجابها بأنوار العظمة وأســتار الجبروت ، كذلك تحيروا في اللفظ الدال عليه ، كأنه انعكس إلــيه مــن مسماه أشعة من تلك الأنوار ، فقصرت أعين المستبصرين عن إدراكه [١] .

فذهب جماعة إلى أنه علم على الذات العلية ، مخصوص به ، موضــوع له ابتداء ، وذهب آخرون إلى أنه علم بالغلبة ، أي أنه في الأصل مستعمل لكل إله لكنه لغلبة الاستعمال عليه تعالى بحيث صار لا يطلق إلا عليه سبحانه صار علم شخص .

---

[١] انظر معجم مقاييس اللغة ولسان العرب (وقى) ، مفردات ألفاظ القرآن (٨٨١) والتعريفات (٥٧) ،معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٨٧٤ ـ ٨٧٨) وغير ذلك .

[١] الكليات (ص ١٧٣) بتصرف .

والـــذي يظهـــر لي من هذا الاختلاف أنه اختلاف شكلي ، أو بعبارة أخرى أقول جهة الخلاف بينهما منفكة ، لأنه إما أن يكون علم شخص أو علم جنس ، والقائلون بالثاني قالوا إن غلبة الاستعمال نقلته مـــن كونه علم جنس حتى صار كأعلام الأشخاص ، فالمحصلة واحدة وهـــو أنه علم شخص سواء كان ذلك بالأصالة أو كان في الأصل علم جنس .

وكذلـــك ذهـــب أكثر العلماء والمفسرون إلى أنه اسم موضوع للذات العلية ابتداءً ، بينما ذهب القاضي البيضاوي إلى أنه وصف في الأصـــل وليس اسماً ، لكنه لما غلب عليه بحيث إنه لا يستعمل إلا في المعـــبود بحق وحده ، ولا يستعمل في غيره فصار له كالعلم فأجرى مجـــرى العلـــم في إجراء الأوصاف عليه ، وامتناع الوصف به فهو يوصـــف ولا يوصف به ، وكذلك أجري مجرى العلم في عدم تطرق احتمال الشركة إليه .

والخـــلاف هـــنا كســـابقه لا طائل من ورائه ، فسواء كان في الأصـــل اسماً أو وصفاً لكنه الآن علم أو يشبه العلم في كل صفاته ، لكن الراجح ، كما سيأتي عما قريب ، أنه اسم وليس وصفاً .

واختلف العلماء أيضاً في لفظ الجلالة من حيث أصله اللغوي ، أعني أصل بنية الكلمة ، أمشتق هو ، أم موضوع للذات العلية ابتداءً ، وليس بمشتق .

والذيـــن قـــالوا باشـــتقاقه اختلفوا في أصل لفظه المشتق منه ، فأكثرهم قال إنه مشتق من أله بفتح الهمزة واللام – بمعنى عبد ، ومنه الإلاهة والألوهة والألوهية ، كالعبادة والعبودة والعبودية وزناً ومعنى.

ومنهم من قال إنه مشتق من أله – بفتح فكسر – بمعنى تحير أو اضطرب ، أو ذهب عقله ، وألفه عند جماعة من أهل اللغة مبدلة من واو ، قالوا : فأله ووله – بكسر اللام فيهما – بمعنى واحد .

ومنهم من قال إنه مشتق من لاه يليه ليهاً ، أو من لاه يلوه لوهاً ولاهاً ، بمعنى ارتفع واحتجب .

ومـــنهم من قال إنه مشتق من وله – بفتح فكسر – ولهاً وولاهة بمعنى تحير ، وقد تبدل واوه همزة كما سبق .

والـــذي تميل إليه النفس وتؤيده الأدلة ، وتعضده القرائن ، أن لفـــظ الجلالة (الله) اسم ، علم ، موضوع لذاته تعالى ابتداءً ، وليس بمشتق ، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١ – أن اشـــتقاق اللفـــظ يدل على الاشتراك في المعنى ، وإذا ســـلمنا بذلك ، جاز إطلاق هذا اللفظ على المعبود بحق وعلى المعبود بـــباطل ، وهـــذا لا يجوز ، ولشرح هذا الكلام أقول القائلون باشتقاقه أكـــثرهم قالوا إن أصله إله ، وقد أطلق القرآن لفظ الإله على المعبود بحق وعلى المعبود بباطل ، فقال تعالى في الأول ﴿ **وهو الذي فـــي**

السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ﴾ [١] ، وقال سبحانه وتعالى في الثاني مخاطباً السامري ﴿ **وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً** ﴾ [٢] ، وقال عز شأنه أيضاً حكاية عن قوم موسى ﴿ **قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة** ﴾ [٣] ، وإذا ثبت إطلاق لفظ الإله على كل من المعبود بحق والمعبود بباطل لزم أن يكون لفظ الجلالة (الله) الذي لا يطلق إلا على المعبود بحق مختلفاً عن الإله الذي يطلق عليه

والراجح أنه اسم علم جامد وليس بمشتق ، وليس صفة ، وهو موضوع للمعبود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية .

٢ - أن الذين قالوا باشتقاقه لا يتفقون على أصل اشتقاقي واحد أو بعبارة أخرى لا يتفقون على فعل واحد مشتق منه ، ولم يقف اختلافهم على حد فعلين أو لفظين ، إنما أوصله بعضهم في الاشتقاق إلى ستة أقوال أو أكثر على ما مر بك آنفاً .

٣ - المشتق يجمع ويثنى ولفظ الجلالة لا يثنى ولا يجمع .

---

[١] **سورة الزخرف (٨٤) .**

[٢] **سورة طه (٩٧) .**

[٣] **سورة الأعراف (١٣٨) .**

٤ – أنه يوصف ولا يوصف به (لا يكون وصفاً) .

٥ – لم يسم به غير الله تعالى ، يقول سبحانه ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً** ﴾ [١] ومعلوم بداهة أن الاستفهام في الآية يراد به النفي كما ذكر علماء البلاغة وعلماء التفسير أي لا تعلم له سمياً يشبهه في اسمه ويماثله فيه

٦ – ويؤكد عدم زيادة (ال) في لفظ الجلالة أنها تبقى في النداء مقطوعة الهمزة فيقال يا الله ، ولا يجمع بين ياء النداء و(ال) التعريفية الزائدة أبداً ، يقول القرطبي : ..... [٢]

٧ – أن الاشتقاق يستلزم وجود الذات بلا موصوف لأن سائر أسماء الله تعالى صفات ، وإذا كان لفظ الجلالة مشتقاً لزم أن يكون صفة كذلك فوجب أن يكون اسم علم جامد ليوصف به .

فهذه الأدلة وغيرها تدل أو تعضد ما ذكرته آنفاً أو ما ذهبت إليه سلفاً من أن لفظ الجلالة اسم علم غير مشتق موضوع للذات العلية

---

[١] سورة مريم (٦٥) .

[٢] الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٣) .

ابتداءً [١] .

والطاعـــة : الاستجابة والانقياد . وقوله تعالى ﴿ **فطوعت لـــه نفســـه قتل أخيه فقتله** ﴾ [٢] أي انقادت له وسهلت عليه فعل ذلك ، وأكــثر ما تقال الطاعة في الامتثال للأمر ، فيقال : أمرته فأطاعني ، أي فعـــل ما يوافق الأمر ، ولذلك عرفها الجرجاني بأنها موافقة الأمر طوعـــاً ، وهي عند المكلف تقابل المعصية ، يقول تعالى ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفـــوز العظـــيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خـــالداً فـــيها ولــــه عذاب مهين** ﴾ [٣] ، وهي مخالفة الأمر طوعاً وقصداً ، فإن مخالفة الأمر طوعاً لا قصداً بأن كان ساهياً أو ناسياً أو نحو ذلك فلا تعد معصية ، وكذلك مخالفة الأمر قصداً لا طوعاً ، لأنه إكـــراه والمكره لا يؤاخذ على النطق بكلمة الكفر ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله**

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ولسان العرب (أله) ومفردات ألفاظ القرآن (٨٢ ، ٨٣) والجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٢ ، ١٠٣) ، ومفاتيح الغيب (١ / ٢٠١ – ٢٠٩) ، وعـناية القاضـي وكفايـة الراضـي (١ / ٧٩ – ٩٨) ، والكلـيات (١٧٢ ، ١٧٣) ، وروح المعاني (١ / ٩٤ – ١٠٠) ومعجـم ألفـاظ القـرآن الكـريم (١ /٤٧ ، ٤٨) ، وتدبر أسرار التنزيل (١ / ٣٩ – ٤٤) وغير ذلك .

(٢) سورة المائدة (٣٠) .

(٣) سورة النساء (١٣ ، ١٤) .

ولهــم عــذاب عظيم ﴾ [١] ، وهي عند غير المكلف تقابل الإكراه ، يقــول تعــالى ﴿ **أفغــير ديــن الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون ﴾** [٢] . .

ويقــول سبحانه ﴿ **ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهــم بالغدو والآصال ﴾** [٣] ، ويقول جل وعلا ﴿ **ثم استوى إلى الســماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعيــن ﴾** [٤] ، وإنمــا قوبلت الطاعة بالإكراه عند المسخر المذلل الذي لم ينخرط في سلك المكلفين ، لأنه لا يتصور في حقه المعصية ، إذ المعصــية لا تكون إلا من مختار مريد ، والمسخر لا اختيار لــه ولا إرادة [٥] .

والكفــر فــي الأصل الستر والتغطية وسمي الكافر بذلك لأنه يستر الحق ويغطيه أو يستر النعمة ، والكافر عكس المؤمن ، وعكس الشاكر ، وهذا ما يشير إليه العلماء بقولهم كفر اعتقاد وكفر نعمة ،

---

(١) سورة النحل (١٠٦) .

(٢) سورة آل عمران (٨٣) .

(٣) سورة الرعد (١٥) .

(٤) سورة فصلت (١١) .

(٥) انظر : معجم مقاييس اللغة ولسان العرب (طوع) ، ومفردات ألفاظ القرآن : ٥٢٩ ـ ٥٣١ ، التعريفات (١٢٢ ، ١٩٨) معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ١٤٩ ، ١٥٠) وغير ذلك .

وإذا أطلق الكافر أو ما اشتق منه ، ولم يتعد إلى مفعول به كان معناه عدم الإيمان بالرسول أو بالقرآن الكريم ، ونحو ذلك [١] .

والـــنفاق : هـــو إظهار الإسلام والعمل بمقتضاه في الظاهر ، وإبطـــان الكفر وهو مأخوذ من النفق أو من نافقاء اليربوع ، أما النفق فهـــو طـــريق فـــي الأرض مستور له مخرج من موضع آخر ، وأما النافقاء فهو جحر مستتر يصنعه اليربوع بخلاف جحره الظاهر ، فإذا قُصِد من جحره الظاهر خرج من جحره المستتر ، لأن المنافق يدخل إلـــى الإسلام في الظاهر من باب ، ويخرج منه إلى الكفر في الخفاء والســـتر من باب آخر ، وقد جعل الله المنافقين شراً من الكافرين ، إذ جعـــل عذابهم أشد من عذاب الكافرين ، قال تعالى ﴿ **إن المنافقين في الـــدرك الأســـفل من النار** ﴾ [٢] ، والنفاق في معنى إظهار الإسلام وإبطـــان الكفـــر من الكلمات الإسلامية المحضة وإن كان مأخذها من معنى لغوي قديم [٣] .

وكـــان : فعـــل ماض ناقص ، لكنه يدل على الدوام والاستمرار ، ولا يقف عند حد الزمان الماضي إذا وجدت قرينة في السياق تدل على

---

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن (٧١٤ – ٧١٧) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٥٠٣ – ٥١١) ، وغير ذلك .

(٢) سورة النساء (١٤٥) .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ، ولسان العرب (نفق) ، مفردات ألفاظ القرآن ٨١٩ ، ٨٢٠ ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٧٥٠ ، ٧٥١) وغير ذلك .

ذلــك ، وهي حينئذ تفيد اتصاف المبتدأ بالخبر على سبيل الاستمرار ، فــي الماضي والحاضر والمستقبل ، دون التقيد بزمن معين ، من تلك القرائن أن يكون الحديث عن اتصاف الله تعالى بإحدى صفاته كما هو الحــال فــي هــذه الآيات ، وكما هو الحال في كثير من آيات القرآن الكــريم ، ومن تلك القرائن أن يكون الحديث عــن وصف الشيء أو الشــخص بما هو من لوازمه التي لا تنفك عنه أو من عناصر طبيعته الملائمــة له ، مثل قولــه سبحانه وتعالى ﴿ **وكــان الإنسان عجولاً – وكــان الشــيطان لربه كفوراً – إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ [١] ، وقوله سبحانه ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصياً** ﴾ [٢] .

وإذا نظــرنا إلى سورة الأحزاب التي بين أيدينا فإن كان التي تــدل على الدوام والاستمرار قد تكررت في ثناياها في ست وعشرين موضعاً [٣] .

والعليم : صيغة مبالغة من العلم ، وصفات الله تعالى التي هي صــيغة مــبالغة كلها مجاز ، إذ هذه الصيغ موضوعة للمبالغة ، ولا مــبالغة في صفات الله تعالى ، لأن المبالغة هي أن تثبت للشيء أكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال ، لا يمكن المبالغة فيها

---

(١) سورة الإسراء (١١ ، ٢٧ ، ٨١) .

(٢) سورة مريم (٤٤) .

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن (٧٣٠ ، ٧٣١) والبرهان (٤ / ١٢١ – ١٢٦) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٥٣٢ – ٥٣٤) ، وغير ذلك .

والمبالغة أيضاً إنما تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان ، وصفات الله عــز وجل منزهة عن ذلك ، وعلى هذا لا يمكن أن تكون المبالغة فــي صــفات الله تعــالى حقــيقة إلا إذا كانت المبالغة بحسب تعدد المفعولات والمتعلقات ، وهذا لا يوجب للفعل زيادة ، إذ الفعل الواحد قــد يقــع على جماعة متعددين ، وعلى هذا فالمبالغة في العليم لا تقع علــى أصل العلم ، إنما تقع على ما يشمله العلم من كل المعلومات ، وكذلــك الحكــيم ، إذ معنى المبالغة فيه تكرار حكمه بالنسبة للشرائع والــنوازل ، وهكــذا فــي سائر صفات الله تعالى التي لها مفعول أو متعلق [١] .

والعلــم في أصل دلالته اللغوية الحسية عبارة عن أثر بالشيء يتميز به عن غيره [٢] ، كالعلامة والعَلَم ونحو ذلك ، وإنما كان العلم كذلك لأن صاحبه إن لم يتميز به بين الناس عملاً وخلقاً فلا قيمة لعلمه ولهذا عبر القرآن في مواطن عن العمل بالعلم ليدل على أن قيمة العلم أن يؤثــر في صاحبه عملاً ينجيه من عذاب الله تعالى ، وذلك كما في قوله سبحانه ﴿ **وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار أمن هو قانت آناء**

---

(١) **انظر البرهان (٢ / ٥٠٧ ، ٥٠٨) .**

(٢) **معجم مقاييس اللغة (علم) .**

الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [١] ، فقد توعد الكافر الذي يعلم أنه لا إله يفزع إليه إلا الله ، المعاند مع علمه هذا ، لأن علمه لم يؤثر فيه بالإيمان ، وأثنى على المسلم العالم بهذه الحقيقة ، والذي أثمر فيه علمه بعد الإيمان طاعة شاقة على النفس ، وهي قيام الليل ، ثم سأل هل يستوي هذا مع ذاك ، هل يستوي المؤمن والكافر ، وأتى في السؤال بوصف العلم (يعلمون – لا يعلمون) مع أن المتبادر إلى النفس أن يكون الذين يؤمنون ويعملون بمقتضى ذلك الإيمان والذين يكفرون ويعاندون للدلالة على هذه الحقيقة التي ذكرتها ولذلك ذكر القرطبي في قوله سبحانه ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ : الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به ، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم [٢]

وقال الزمخشري : وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة ، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم ، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ، ثم لا يقنتون ، ثم يفتنون بالدنيا ، فهم عند الله جهلة ، حيث جعل القانتين هم العلماء [٣] .

---

[١] سورة الزمر (٩ ، ١٠) .

[٢] الجامع لأحكام القرآن (١٥ / ٢٤٠) .

[٣] الكشاف (٣ / ٣٤١) .

وأما العلم في دلالته الاصطلاحية فهو إدراك الشيء بحقيقته ، أو إدراك حقيقة الشيء ، وهو ضربان : الأول : إدراك ذات الشيء . والثاني : الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له ، أو بنفي شيء هو منفي عنه ، فالأول هو الذي يتعد فعله إلى مفعول واحد ، مثل قوله جل وعلا ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ [١] ، والثاني هو الذي يتعدى فعله إلى مفعولين ، مثل قوله سبحانه ﴿ **فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار** ﴾ [١] وهناك تعريفات كثيرة للعلم غير هذا ، وكذلك تقسيمات متنوعة يطول المقام بذكرها [٣] .

والعالم والعليم في وصف الله تعالى هو الذي لا يخفى عليه شيء ، لأن علم الله تعالى علم إحاطة وانكشاف بخلاف علم البشر .

والحكيم كذلك صيغة مبالغة من الحكمة ، أو على تقدير مضاف محذوف أي ذو الحكمة ، وأصل الحكم المنع لأجل الإصلاح وتطلق معاني الحكمة على كل ما يتحقق فيه أو به الصواب من القول والعمل ، لأن الصواب إنما يتحقق بمنع الفساد والخلل أو بإصلاح ما

---

[١] **سورة الأنفال (٦٠) .**

[١] **سورة الممتحنة (١٠) .**

[٣] **انظر مفردات ألفاظ القرآن (٥٨٠) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٢٣٦ ـ ٢٤٢)**

فــيه فســـاد أو خلـــل ، ولذلـــك عـــرفها البعض بأنها إصابة الحق ، والـــبعض بأنهـــا الوحي والبعض بأنها السنة ، والبعض بأنها وضع الشـــيء فـــي موضعه ، إلى غير ذلك من التعريفات التي تلتقي حول إصابة الحق [١] .

اتـــبع : تبعه وأتبعه سار خلفه سواء أكان هذا السيـــر حسياً أم معـــنوياً ، أمـــا الحســـي فبالجسم ، وأما المعنوي فهو بمعنى الاقتداء والامتثال ، وأكثر ما جاء في القرآن هو من الاتباع المعنوي [٢] .

والوحي في أصله اللغوي إعلام مع خفاء ، أو كما يقول ابن فارس ، إلقـــاء علم في إخفاء وغيره إلى غيرك ، وقوله في إخفاء وغيره كأنه يشـــير إلـــى الســـرعة ، فقد ذكر هو وغيره من مفردات هذه المادة الوحـــي : الســـريع ، وقد صرح الراغب بما أشار إليه ابن فارس ، يقـــول الراغب : أصل الوحي الإشارة السريعة ، وعلى هذا يمكن أن نعرف الوحي لغة بأنه إعلام مع خفاء وسرعة ، ووحي الله : إعلامه تعالى أحد أنبيائه ما يريد بواسطة الملائكة ، أو بواسطة جبريل [٣] .

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن (٢٤٨ – ٢٥١) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ٣٠٠ – ٣٠٤) .

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن (١٦٢) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ١٥٢ – ١٥٦) ، وغير ذلك .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة واللسان (وحي) ، مفردات ألفاظ القرآن (٨٥٨) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٨٣١) .

والـــرب هـــو الذي يصلح الشيء ويقوم عليه ، بملازمته وضم بعضــــه إلـــى بعــض ورعايته ، والرب والتربية بمعنى واحد ، وهي إنشاء الشيء حالاً فحالاً حتى يبلغ تمامه وكماله ، والرب غير مضاف لا يقـــال إلا لله ســـبحانه ، وإذا أضيف يقال لله ولغيره ، وإذا أضيف يطلق على المالك والسيد والمنعم ، ولم يرد في القرآن مضافاً لغير الله إلا في خمس مواضع ، جاءت كلها في سورة يوسف [١] .

وهـــي قوله تعالى ﴿ **إنه ربي أحسن مثواي** [٢] – **أما أحدكما فيسقي ربــــه خمراً – وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين – قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة التي قطعن أيديهن** ﴾ [٣] .

والعمـــل : كـــل فعل يكون من المكلف بقصد ، فهو أخص من الفعـــل ، لأن الفعـــل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد ، وقد ينسب إلى الجمادات ، والعمل قلما ينسب إلى ذلك [٤] .

---

[١] في الآيات (٢٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٠) .

[٢] هذا على أرجح الآراء في الآية وعليه أغلب المفسرين ، ويؤيده قوله تعالى قبل ذلك (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه) ، وهناك من يقول إنه عنى بذلك الله عز وجل .

[٣] انظر معجم مقاييس اللغة (رب) واللسان (ربب) ، ومفردات ألفاظ القرآن (٣٣٦ ، ٣٣٧) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ٤٦٢ ، ٤٦٣) ، وغير ذلك .

[٤] مفردات ألفاظ القرآن (٥٨٧) .

والمـــتأمل فـــي استعمالات القرآن وأقوال العلماء يجد أن ثمت فروقاً بين العمل والفعل نوجزها فيما يلي :

١ – العمل لا يكون إلا من المكلف ، والفعل يكون من المكلف وغـــيره ، وإنمـــا قلت من المكلف لأن القرآن قد استعملها مسندة إلى الجن في مثل قوله سبحانه ﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات** ﴾ [١] .

٢ – العمـــل لا يكـــون إلا بنـــية وقصد ، والفعل يكون بقصد وبغير قصد .

٣ – أن العمـــل يستعمل لما يمتد زمانه ، بخلاف الفعل ، فإنه يستعمل لما يكون دفعة واحدة ، وفي زمن واحد غير ممتد [٢] .

٤ – أن العمـــل يتكرر حدوثه من المكلف ، والفعل يستعمل لما لا يتكرر غالباً .

٥ – أن العمـــل يفـــيد إيجـــاد الأثر في الشيء بخلاف الفعل ، تقـــول : فلان يعمل الطين خزفاً ، والخوص زنبيلاً ، والأديم سقاءً ، إلـــى غـــير ذلك ، ولا يقال : يفعل ذلك ، لأن فعل الشيء عبارة عما وجد في حال كان قبلها مقدوراً ، سواء كان عن سبب أو لا [٣] .

---

[١] سورة سبأ (١٣) .

[٢] معترك الأقران (٣ / ٦٠٤) .

[٣] الفروق بتصرف (١٤٠) .

إلى غير ذلك من الفروق التي تظهر لمن يمعن التدبر ، ويطيل النظر في آيات القرآن الكريم .

فالقرآن يعبر عن العمل مع الصالحات ، لأن العمل الصالح لا يكون كذلك إلا بقصد ونية ، ويكون من المكلف ، ويمتد زمانه ، لأنه يتكرر طيلة حياة المؤمن .

وقوله تعالى في قصة موسى حاكياً الحوار بين موسى وفرعون **﴿ قـــال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾** [١]

فقد عبر بالفعل دون العمل ، لأن موسى لم ينو القتل ولا قصده ولم يتكرر منه ذلك ، ولم يأخذ وقتاً طويلاً ، إلى غير ذلك .

والخبـــير في وصف الله عز وجل صيغة مبالغة من الخُبْر أو الخُـــبْرَة – بضم الخاء وتسكين الباء فيهما ، وفتح الراء في الثانية – ومعناه المعرفة والعلم ببواطن الأمور ، وعلى هذا فالخبرة أخص من العلـــم ، لأن الخـــبرة لا تكون إلا مع معرفة تامة ، وعلى هذا فيكون معـــنى الخبـــير فـــي وصـــفه تعالى : العالم بدقائق أخباركم وبواطن أموركم [٢] .

---

[١] **سورة الشعراء (١٨ – ٢٠) .**

[٢] **انظر مفردات ألفاظ القرآن (٢٧٣) ، والفروق (٩٥) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ٣٣٣) .**

وقــد يكــون بين العلم والخبرة فرق آخر ، وهو أن العلم في أغلــب أحواله يكون نظرياً ومنقولاً عن الغير ، بخلاف الخبرة ، فإنها عملية ذاتية مبنية على العلم النظري أو منفكة عنه .

والــتوكل على الغير اعتماد عليه وتفويض إليه ثقة فيه ، وفي قدرته ، وأصله وكل ، تقول : وكلت أمري إليك بمعنى اعتمدت عليك فــيه ، ووثقــت بك في رعايته وحفظه وإنجازه ، والوكيل من هذا : الــذي يوكــل إليه الأمر ، ويسلم له ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، أي موكول إليه ، ولما كان من شأن الوكيل أن يراقب ما وكل إليه ، وأن يحفظــه ، ويقــوم عليه ، وأن يكون قادراً على حفظه وعدم تضييعه إيــاه ، اســتعمل القرآن الوكيل بمعنى الحفيظ والرقيب والكفيل ، أي الضــامن ، والمعيــن الناصــر ، والــتوكل على الله الاعتماد عليه ، وتفويــض الأمــر إلــيه ثقة به ، وربما لوحظ فيه معنى آخر ، فيقال الــتوكل على الله هو الثقة بما عند الله ، واليأس عما في أيدي الناس ، أي مــع الأخذ بالأسباب ، لأن التوكل من أعمال القلوب ، وليس من أعمال الجوارح [١] .

وكفى من الكفاية وهي سد الخلة وبلوغ المرام من الأمر ، وهو الحسب الذي لا مستزاد فيه ، ويأتي الفعل (كفى) لازماً ، ومتعدياً

---

[١] انظر معجم مقاييس اللغة واللسان (وكل) ، والتعريفات (٦٢) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٨٧٩ ، ٨٨٠) .

إلى مفعول واحد ، ومتعدياً إلى مفعولين ، أما اللازم فمثل قوله تعالى **﴿ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾** [١] ، وتدخل الباء على فاعله للتوكيد من ناحية ، وللدلالة على أن الخبر فيه بمعنى الأمر ، كما ذكر الزجاج [٢] ، أي اكتف به ولياً ، واكتف به نصيراً .

قال ابن هشام : وهو من الحسن بمكان [٣] ، ومعنى كفى بالله وكيلاً ، أو ولياً ، أو نصيراً ، أو شهيداً ، أنه سبحانه بلغ الكفاية في ذلك ، فوجب عليك أن تكتف به فيه ، وتعتمد عليه في ذلك ، فهو حسبك وكافيك .

وأما المتعدي إلى مفعول واحد فهو بمعنى أجزأ وأغنى ، تقول : كفاني هذا الطعام وذلك المال ، أي أغناني ، ومنه : قوله سبحانه وتعالى **﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا الكتاب يتلى عليهم ﴾** [٤] .

وأما المتعدي إلى مفعولين فهو بمعنى حفظ وحمى ووقى ، تقول : فلان كفاني العدو ، أي حماني منه ، وحفظني من كيده ، وكفاني مشقة السفر حماني من تحملها بأن قام مقامي فيها ، ومنه قوله

---

(١) سورة النساء (٤٥) .
(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه (٢ / ٥٧) .
(٣) مغني اللبيب (١ / ١٠٦) .
(٤) سورة العنكبوت (٥١) .

تعـــالى ﴿ **إنـــا كفينـــاك المستهزئين** ﴾ [١] ، أي حميناك من كيدهم ، وكففنا عنك أذاهم .

وقولـــــه سبحانه ﴿ **فســـيكفيكهم الله** ﴾ [٢] ، أي أنه عز اسمه سيحميك منهم ويكف عنك أذاهم [٣] .

---

[١] سورة الحجر (٩٥) .

[٢] سورة البقرة (١٣٧) .

[٣] انظر معجم مقاييس اللغة (كفى) ، ومفردات ألفاظ القرآن (٧١٩) ، ومغني اللبيب (١ / ١٠٦ – ١٠٧) ، والبرهان (٤ / ٢٥٢) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٥١٣ ، ٥١٤) .

ثانياً : القــراءات :

١ – قولـــه تعالى ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ [١] : قرأ السبعة إلا نافعاً (النبـــي) بـــياء مدغمة بعد الباء ، وقرأها نافع (النبيء) بهمزة بعد الـــياء الممـــدودة ، وذلك في كل القرآن ، إلا في قوله تعالى (بيوت النبـــي ... يـــؤذي النبـــي) فقـــد قرأهما قالون عن نافع بياء مدغمة كـــالجمهور ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وتقدم توجيهه كذلك عند ذكر معنى كلمة (النبي) .

٢ – قوله تعالى ﴿ **إن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ [٢] : قرأ الســـبعة إلا أبـــا عمرو البصري بتاء الخطاب هنا وفي قوله سبحانـــه ﴿ **وكـــان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ [٣] ، وقرأهما أبو عمرو بياء بدل التاء (يعملون) في الموضعين ، يقول الشاطبي رحمه الله [٤] :

.... وقل .. بما يعملون اثنان عن ولد العلا

وسيأتي توجيه القراءتين عند تفسير هذه الآية بإذن الله تعالى .

---

[١] سورة الأحزاب (١) .

[٢] سورة الأحزاب (٢) .

[٣] سورة الأحزاب (٩) .

[٤] حرز الأماني (٧٧) .

ثانياً : مسائل التفسير :

في هذه الآيات الثلاث قضايا متعددة ، ومسائل كثيرة ومتنوعة أذكرها فيما يلي :

المسألة الأولى :

اشـــتملت هذه الآيات الثلاث على عدة ألوان من التأكيد ، وهذا واضح جلي ، وذلك لأهمية هذه الآيات الثلاث بالنسبة لبقية السورة ، وأهم المؤكدات التي جاءت فيها هي :

١ - **ياء النداء :** فهي- كما يقول ابن هشام: " حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكماً [١]، وقد ينادي بها القريب توكيداً " [٢] ، والتوكيد بها هنا في أعلى درجاته ، وأوثق عراه ، لأن الله قريب إلى كل منادي ، فما بالك بأقرب الخلق إلى الله تعالى ، ألا وهو رسول الله صـــلى الله علـــيه وآله وسلم ، فإذا كان نداء الله عباده بحرف النداي (يـــا) توكـــيداً ، فنداء الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، أقرب المقربين إليه بهذا الحرف يعد أوكد التوكيد .

ولـــم يقع في القرآن نداء بغير حرف النداء (يا) إلا في قوله تعالى ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا**

---

[١] وقولـه : حقيقة أو حكماً ، يشير إلى أن الساهي والغافل حكمه حكم البعيد ، وإن كان قريباً ، ولما كان النداء في الآية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، استحال ذلك ، لاستحالة وجود مثل ذلك في حقه صلى الله عليه وآله وسلم .

[٢] مغني اللبيب (٢ / ٣٧٣) .

رحمة ربه ﴾ [١] ، وذلك على قراءة نافع وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم من (أمن) [٢] في أحد قولي المفسرين واللغويين للهمزة ، والقول الثاني أنها للاستفهام ، وليست للنداء .

وكما اختص نداء الله عباده وأنبياءه بهذا الحرف ، فكذلك لا ينادي اسم الله إلا به ، ولا يقدر عند الحذف غيره ، وذلك لأنه مع إفادته التوكيد أندى وأنفذ ، وفي ذلك إشارة لطيفة جداً ، أما في نداء الله عباده فيفيد أهمية ما بعد النداء وخطورته ، وأنه يجب أن يعتنى به ، وأما في نداء العبد ربه : يا رب ، باستخدام حرف النداء للبعيد ، مع أن الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، فلأن في ذلك إشارة إلى استقصار العبد نفسه ، واستبعاده لها من مظان الزلفى ، ومنازل المقربين ، هضماً لنفسه ، وإقراراً بالتفريط في حق الله تعالى [٣] .

٢ – التوضيح بعد الإبهام : وهو لون من ألوان التوكيد والتقرير ، وذلك لتشوف السامع مع الإبهام إلى ما يزيله ويكشف غموضه ، فإذا ما جاء الموضح قر في النفس ، وتمكن منها ، وبيان ذلك أنك إذا أردت أن تنادي ما فيه آل فإنك لا تستطيع أن تدخل عليه

---

(١) سورة الزمر (٩) .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٥ / ٢٣٨) ، وفتح القدير (٤ / ٤٣٦ ، ٤٣٧) ، وغيرهما .

(٣) انظر : من أسرار التعبير القرآني (٤٣) .

حرف النداء مباشرة ، إنما تأتي بعد حرف النداء بأي ، وهو اسم مبهم يأتي بعده بوصف له يزيل إبهامه ، وهو لفظ (النبي) في الآية [١].

٣ – إن واسمية الجملة ، وذلك في الآيتين الأولى والثانية (إن الله كان عليماً حكيماً) ، (إن الله كان بما تعملون خبيراً) .

٤ – ذكر الخاص بعد العام ، وهو لون من التأكيد ، لأنه يذكر الخاص ضمن أفراد العام تارة ، ثم يخصه بالذكر تارة أخرى ، فكأنه ذكره مرتين ، وكذلك فإنه يفيد زيادة الاهتمام بالخاص ، فالأمر بالتقوى عام ، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين خاص ، لأنه داخل في حيز التقوى ، وكذلك الأمر باتباع وحي الله ، والأمر بالتوكل على الله ، لأن كل ذلك من تقوى الله عز وجل .

٥ – الباء الداخلة على فاعل كفى اللازم ، وإنما تدخل عليه لتأكيد نسبة الفعل إليه ، وقد أشرت إلى ذلك في الكلام على معنى كفى .

٦ – التعليل ، وهو ذكر علة الأمر أو النهي ، أو هو ذكر علة الحكم ، وتعليل الحكم تأكيد على وجوب الامتثال به ، وسيأتي لذلك مزيد بيان عند الكلام على التعليل في فواصل الآيات الثلاث .

---

[١] المصدر السابق نفسه .

المســألة الثانــية : نــداء الله حبيبه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بوصف النبوة (يا أيها النبي) :

نادى الله تعالى سائر أنبيائه في القرآن بأسمائهم ، مثل :

﴿ **يــا آدم** ﴾ (١) ، ﴿ **يــا نــوح** ﴾ (٢) ، ﴿ **يــا إبراهــيم** ﴾ (٣) ، ﴿ **يــا موســى** ﴾ (٤) ، ﴿ **يــا عيسى**) (٥) ، ونحو ذلك ، ولم يناد النبــي صــلى الله علــيه وآله وسلم في القرآن باسمه أبداً ، إنما ناداه بوصف النبوة أو الرسالة مثل : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك ﴾ (٦) ، ﴿ **يــا أيها الرسول بلغ** ﴾ (٧) ، ﴿ **يا أيها النبي حسبك الله** ﴾ (٨) ، ﴿ **يــا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين** ﴾ (٩) ، وذلك لسببين : أما **الأول** فــلأن فــي ذلك إعلاء لمكانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه ، وتكريماً له وتشريفاً .

---

(١) سورة البقرة (٣٣ ، ٣٥) وسورة طه (١١٧ ، ١٢٠) .

(٢) سورة هود (٤٦ ، ٤٨) .

(٣) سورة هود (٧٦) ، وسورة الصافات (١٠٤) .

(٤) سورة الأعراف (١٤٤) ، وسورة طه (١١ ، ١٧ ، ١٩ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٨٣ ، وسورة النمل (٩ ، ١٠) ، وسورة القصص (٣٠ ، ٣١) .

(٥) سورة آل عمران (٥٥) ، وسورة المائدة (١١٠ ، ١١٦) .

(٦) سورة المائدة (٤١) .

(٧) سورة المائدة (٦٧) .

(٨) سورة الأنفال (٦٤) .

(٩) سورة التوبة (٧٣) ، وسورة التحريم (٩) .

وأمـــا الثاني : فلأنه تعالى لو نادى الأنبياء بوصف النبوة أو الرسالة لالتــبس ذلــك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلو جاء قوله تعــالى ﴿ **يـــا إبراهيم أعرض عن هذا** ﴾ [١] على نحو يا أيها النبي أعــرض عــن هذا لالتبس أن يكون النداء لنبي الله إبراهيم وأن يكون لنبيــنا صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما نداء الله تعالى أنبياءه ورسله في كتبهم فيحتمل أن يكون بوصف النبوة وأن يكون بأسمائهم .

وأمـــا الأخــبار فلم يذكر الله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وآلــه وسلم باسمه في معرض الإخبار عنه إلا في أربعة مواضع من القرآن الكريم ، وهي قوله تعالى ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قــبله الرســل** ﴾ [٢] ، وقوله عز وجل ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ [٣]،وقوله سبحانه ﴿ **والذين آمــنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ [٤] .

يرى الزمخشري أن ذكره صلى الله عليه وآله وسلم في بعض أخبار القرآن باسمه لتعليم الناس وإعلامهم بأنه رسول الله ، وتلقيــن

---

[١] **سورة هود (٧٦) .**
[٢] **سورة آل عمران (١٤٤) .**
[٣] **سورة الأحزاب (٤٠) .**
[٤] **سورة محمد ﷺ (٢) .**

لهـــم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، ولأن غالب الإخبار عنه صلى الله علـــيه وآلـــه وسلم إنما جاء بوصف الرسالة أو النبوة فلا تفاوت بين الـــنداء والإخـــبار في إرادة تعظيمه وتشريفه وتكريمه ، ألا ترى إلى الأخـــبار التي لم يقصد بها ذلك التعليم والتلقين ذكره الله فيها بوصف الرسالة أو النبوة كما ذكره في النداء ، وهذه الأخبار كثيرة جداً ، مثل قولـــه تعالى ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾ [١] ، وقوله سبحانه ﴿ **لقـــد جـــاءكم رســـول من أنفسكم** ﴾ [٢] ، وقوله جل وعلا ﴿ **قل أطـــيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ [٣] ، وقوله عز اسمه ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ [٤] ، وقوله تعالى ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أســـوة حسنة** ﴾ [٥] ، وقوله سبحانه ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي** ﴾ [٦] ، وغير ذلك كثير .

وتعقـــب بعـــض المفســـرين الزمخشري في هذا التعليل بقوله تعالى ﴿ **وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾ [٧] ، فإنها ليست للإعلام بأنه

---

[١] سورة التوبة (٦٢) .
[٢] سورة التوبة (١٢٨) .
[٣] سورة النور (٥٤) .
[٤] سورة الأحزاب (٦) .
[٥] سورة الأحزاب (٢١) .
[٦] سورة الأحزاب (٥٩) .
[٧] سورة محمد ﷺ (٢) .

رسول الله [١] .

ويرى البعض أن ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآيات الأربع إنما هو تأكيد لوصف البشرية التي عنى القرآن بتقريرها والتأكيد عليها كل العناية ، حتى يضمن لهذه الأمة نقاء التوحيد ، وصفاء جوهره ، فإذا كان القرآن يهتف دائماً بوصف البشرية لهذا النبي الرسول ، مرة بالقصر ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾ [٢] ، وأخرى في صورة استفهام مسبوق بالتعجب أو التنزيه ﴿ **قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾ [٣] ، وثالثة بإثبات ذلك لكل الرسل على طريق القصر ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق** ﴾ [٤] ، ورابعة ببيان أنه يموت كعامة البشر ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون**﴾ [٥] وهكذا ، وبالجملة فالقرآن يؤكد على كونه بشراً نبياً رسولاً ، وأن بشريته مثل بشرية الناس في كل ما يتعلق بغير النبوة ، ويحرص القرآن على أن يعمق هذا المعنى ، ويقيم الدليل عليه ، حتى يظل

---

(١) انظر الكشاف (٣ / ٢٢٥) ، ومسائل الرازي (٢٧٧ ، ٢٧٨) ، وروح المعاني (١٢ / ٢١٧) ، وغيرها .

(٢) سورة الكهف (١١٠) ، وسورة فصلت (٦) .

(٣) سورة الإسراء (٩٣) .

(٤) سورة الفرقان (٢٠) .

(٥) سورة الأنبياء (٣٤) .

واضـــحاً في هذه الأمة جيلاً بعد جيل رجلاً من رجال مكة اختاره الله بشراً رسولاً ، وقد صدق الله ورسوله ، فقد مضت على رسالة محمد صـــلى الله علـــيه وآله وسلم أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، اتجهــت إلى قبلته فيها أمم تلو أمم ، ولم يطف بخيال مسلم واحد منهم وهـــم يـــتوهمه لحظة واحد بأن محمد إله ، وقد زلت النصارى حين ألهت عيسى عليه السلام ، أو اتخذوه وأمه إلهين من دون الله [١] .

بقي أن نعرف السر في تخصيص النداء هنا وفي غالب القرآن بوصف النبوة دون وصف الرسالة .

أقول : لم أر أحداً من المفسرين تعرض لها في حدود علمي ، وقد أجاب الشيخ محمد أبو موسى عن ذلك بأن لفظ النبي المأخوذ من النــبأ مناســب لما في السورة من معان ، فإن النبأ هو الخبر العظيم الشــأن ، العــاري عن الكذب ، والذي يحصل به علم أو غلبة ظن ، والســورة قد حفلت بأنباء مهمة ، ففيها إنباء ببطلان الظهار ، وإنباء بــبطلان التبني ، وإنباء بزواجه صلى الله عليه وآله وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وإنباء بتخييره صلى الله عليه وآله وسلم نســاءه بأنـــه لا يحل الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله ، وإنباء بأنه لا يحـــل الأزواج من بعد ، ولا أن يبدل بهن من أزواج ، وغير ذلك من أنباء الكافرين والمنافقين والمرجفين ، وغير ذلك .

---

[١] انظر : من أسرار التعبير القرآني (٤٥ ، ٤٦) .

ولهـذا كثر لفظ النبي وتردد في هذه السورة خمس عشرة مرة [١] ، كلهـا جاءت في سياق الإنباء بالأمور المهمة ، بينما جاء لفظ الرسول في السورة ثلاث مرات فقط [٢] .

المسـألة الثالثة : أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتقوى الله عز وجل وهو متلبس بها ، بل هو أتقى الناس لله .

إن الإنسـان إذا كان فاعلاً شيئاً ، أو متلبساً بفعله لا يصح أن يؤمـر به ، فلا يقال للجالس : اجلس ، ولا يقال لمن صلى الفجر في الجماعـة الأولى : صل الفجر ، ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وآله وسـلم أتقى الناس لله عز وجل ففي الحديث الصحيح : أن رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم قال : **" أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له "** [٣] ، فكيف يؤمر بعد كل ذلك بتقوى الله جل وعلا ؟

وقد أجاب المفسرون على ذلك بأن المراد بالأمر هنا ليس هـو

---

[١] سورة الأحزاب (١ ، ٦ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٥، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٩) .

[٢] من أسرار التعبير القرآني (٤٦ ، ٤٧) .

[٣] رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب : قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " أنا أعلمكم بالله " ، من رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حديث رقم ٢٠ ، وكتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه ، حديث رقم : ٥٠٦٣ ، واللفظ له فيه ، ورواه مسلم في كتاب الصيام ، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته من رواية عمرو بن أبي سلمة رضي الله عنه ، حديث رقم : ١١٠٨ ، ورواه غيرهما .

فعل التقوى ، أي إيجاد فعلها ابتداءً ، بل المراد من الأمر إنما هو شيء زائد عن أصل الفعل بمعنى اثبت على تقوى الله ، أو دم عليها ، أو ازدد منها ، فإن تقوى الله باب واسع لا يدرك آخره ، ولا ينال مداه ، وأمثلة هذا في القرآن كثير ، وأوضح مثال لذلك هو قول الله تبارك وتعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ...** ﴾ [١] ، فقد أثبت لهم الإيمان ، وناداهم موصوفين به ، ومع ذلك أمرهم به [٢] .

ويرى البعض أن الأمر وإن كان موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنه ليس المقصود به ، إنما المقصود بهذا الأمر أمته [٣] .

ويرى فريق ثالث أن التقوى هاهنا خاصة ، وهي غير التقوى العامة بدليل عطف النهي بعدها عليها كأنه قال : اتق الله تقوى تمنعك من طاعة الكافرين والمنافقين [٤] .

---

(١) سورة النساء (١٣٦) .

(٢) انظر معاني القرآن وإعرابه (٤ / ٢١٣) ، والكشاف (٣ / ٢٢٥) .

(٣) انظر لباب التأويل (٥ / ٢٢٩) ، ومعالم التنزيل (٥ / ٢٢٩) ، والبحر المحيط (٨ / ٤٥٠) .

(٤) مفاتيح الغيب (١٢ / ٥٦٨) .

المسـألة الـرابعة : نهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طاعة الكافريـن والمنافقين مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم تحصل منه طاعتهم .

ويجـاب علـى ذلك مثل ما قيل في أمره صلى الله عليه وآله وسلم بتقوى الله سبحانه ، يقول العلامة الألولسي : ولا يبعد أن يكون المـراد بالنهـي الثبات على عدم الإطاعة ، وذكره بعد الأمر بالتقوى المـراد مـنه الثبات عليها من قبيل التخصيص بعد التعميم ، لاقتضاء المقام الاهتمام به [١] .

وقوله – رحمه الله –: ولا يبعد ، فيه ما فيه ، بل هو الصواب ومـا ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآية الذي يوحى بأنه صلى الله علـيه وآلـه وسلم هم بطاعتهم مردود سنداً ومتناً ، أما من حيث السـند فقد رووه معلقاً بلا إسناده ، والمعلق ضعيف ، وأما من ناحية المتـن ، فكـيف يطيعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة ، وعـنده دولة بدأت أركانها تثبت ، ومكانتها ترتفع بعد غزوة بدر وما بعدهـا ، في حين أنه رفض طاعتهم رفضاً تاماً في مكة ، ولم تكن له قوة ولا دولة ، أيعقل أن يطيعهم بعد وجود الدولة وازدياد القوة ؟

---

[١] **روح المعاني** (١٢ / ٢١٨) .

المســـألة الخامســـة : تخصيص الكافرين والمنافقين بالذكر ، مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينبغي ألا يطيع أحداً غير الله .

أثار هذه المسألة العلامة الفخر وأجاب عنها بجوابين [١] ، أما **الأول** : فإن ذكر الغير لا حاجة إليه ، لأن غيرهما لا يطلب من النبي صـــلى الله عليه وآله وسلم الاتباع ، ولا يتوقع أن يصير النبي صلى الله علـــيه وآله وسلم مطيعاً له ، بل يقصد اتباعه ، ولا يكون عنده أو بين يديه إلا مطاعاً .

وأمـــا الثانـــي : فإن منع الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من طاعة الكافرين والمنافقين فيه منع من طاعة الكل ، لأن كل مـــن طلـــب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم طاعته فهو كافر أو مـــنافق ، لأن مـــن يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر إيجاب معتقداً أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافراً أو منافقاً .

هذا كلامه رحمه الله ، وفيه نظر من وجوه :

الأول : فـــإن هـــناك من غير الكافرين والمنافقين من يرغبون طاعـــة النبـــي صـــلى الله علـــيه وآله وسلم لهم ، فالله تعالى خاطب المؤمنيـــن بقوله جل وعلا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين واعلموا**

---

[١] **مفاتيح الغيب (١٢ / ٥٦٨)** .

أن فـيكم رسـول الله لـو يطيعهم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ [١] .
فالآيـة تفيد بمفهوم المخالفة أنه صلى الله عليه وآله وسلم لو أطاعهم فـي قلـيل مـن الأمر أو كثير [٢] لا يصيبهم عنت ولا مشقة ، بل تحصـل لهـم المصلحة والمنفعة ، وذلك جائز فيما لم يرد فيه نص ، كمـا سأقرره في الوجه الثاني ، ولا يلزم من كون المؤمنين يرغبون أن يطـيعهم النبـي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأمور التي يقصدون المصلحة من وراء ذلك ، لا يلزم من ذلك أن يكونوا كفاراً .

الثانـي : أنـه من الممكن أن يطيع النبي صلى الله عليه وآله وسـلم آحـاد المؤمنين أو بعضهم أو جماعتهم فيما لم ينزل عليه فيه وحـي تطبـيقاً للشـورى ، امتـثالاً لقول الله تعالى **﴿ وشاورهم في الأمـر ﴾** [٣] ، وقد أخذ بمشورة آحاد الصحابة في غزوة بدر ، وفي غـزوة الخندق ، وفي اتخاذ خاتم يختم به كتبه إلى الملوك والكبراء ، وأخذ بمشورة جماعة من الصحابة في غزوة أحد ، وغير ذلك كثير .

الثالـث : أنه يجوز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما لم يرد فيه نص من أمور الدنيا التي فيها مصلحة أن يطيع آحاد الكفـار ،

---

(١) سورة الحجرات (٦ ، ٧) .

(٢) إنمـا قلت أو كثير بناء على ما هو مقرر في القرآن واللغة من جواز مقابلة الكثير بالكثير ، فتقول : كثير سافروا ، وكثير أقاموا ، ومنه قوله تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات .... وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب) سورة الحج (١٨)

(٣) سورة آل عمران (١٥٩) .

وذلك كما حدث في قصة الهجرة ، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتبعان عبد الله بن أريقط في طريق غير معهودة يعرفها هو دونهما ، وهو رجل مشرك.

الرابع : أن غالب الكافرين والمنافقين لم يأمروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر إيجاب ، إنما هي مساومات ومداهنات من قبيل المداهنة ، أو إسداء النصح ، أو الرغبة في إيجاد الحلول لهذا الصراع بينه وبينهم .

إلى غير ذلك من الوجوه التي ترد كلامه .

والذي أراه والله أعلم أن الله عز وجل إنما خص الكافرين والمنافقين بالذكر في معرض النهي بصيغة الجمع لأنهم لا يريدون من وراء طاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم إلا العنت والمشقة ، والبوار والهلكة ، وزوال الإسلام ، واستئصال شأفة المسلمين ، فهم لا يريدون الخير ولا المصلحة أبداً ، يقول تعالى ﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم** ﴾ [١] ، ويقول سبحانه ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾ [٢]

---

[١] **سورة البقرة (١٠٥) .**

[٢] **سورة البقرة (١٠٩) .**

ويقــول جــل وعلا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يــألونكم خــبالاً ودوا مــا عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفــي صــدورهم أكــبر** ﴾ [١] ، ويقــول عز وجل ﴿ **فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومــن يضــلل الله فلن تجد له سبيلاً ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** ﴾ [٢] ، ويقول تعالى ﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون** ﴾ [٣] .

وقد صرح القرآن بهذه العلة التي من أجلها نهى المسلمين عن طاعــة الكفار عموماً ، مشركين وأهل كتاب ومنافقين ، يقول سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعــد إيمانكم كافرين** ﴾ [٤] ، ويقول عز وجل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ [٥] ويقــول تعــالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ [٦] .

---

[١] سورة آل عمران (١١٨) .
[٢] سورة النساء (٨٨ ، ٨٩) .
[٣] سورة الممتحنة (٢) .
[٤] سورة آل عمران (١٠٠) .
[٥] سورة آل عمران (١٤٩) .
[٦] سورة الأنعام (١١٦) .

ومعلوم من نصوص القرآن المتضافرة أن الأكثرية كافرة .

وأمـــا طاعـــة النبي صلى الله عليه وآله وسلم آحاد الكفار في الأمـــور التـــي لم يرد فيها نص مع وجود المصلحة ، مثلما حدث في الهجرة مع عبد الله بن أريقط ، فيحتمل بقاء حكمه لنا نحن المسلمين ، ويحـــتمل إبطاله أو نسخه بهذه الآية ونحوها إذ هي مدنية متأخرة عن قصـــة الهجرة ، والظاهر فيما أرى والله أعلم بقاء هذا الحكم بضوابط مخصوصة وشروط معينة تستنبط من قصة الهجرة .

المسألة السادسة : المراد بقوله تعالى ﴿ **ما يوحى إليك من ربك** ﴾ .

أغلـــب المفســـرين على أن المراد بذلك هو القرآن ، بل روى الطـــبري بإســـناده إلى قتادة رضي الله عنه في الآية قال : (**واتبع ما يوحى إليك من ربك**) أي هذا القرآن [١] .

وهـــذا عندي ، والله أعلم ، تخصيص للعموم بلا دليل ، لأن ما إن كانـــت موصولة وهو الراجح فهي تفيد العموم بذاتها ، إذ المعنى : واتـــبع كل الذي يوحيه إليك ربك ، وإن كانت مصدرية فالمصدر يفيد العموم لأنه مفرد مضاف ، ويكون المعنى : واتبع كل وحي ربك إليك وعلى كل فتخصيص الوحي في الآية بالقرآن لا دليل عليه ، وقد أجاد العلامة ابن كثير حين فسر الوحي بالقرآن والسنة ، فقد قال (واتبـــع

---

[١] جامع البيان (٢١ / ٧٤) .

ما يوحى إليك من ربك) أي من قرآن وسنة [١] .

المسـألة السابعة : العطف في قوله تعالى ﴿ **واتبع ما يوحى إليك من ربك** ﴾ :

بعض المفسرين يرى أنه من قبيل عطف الخاص على العام ، لأن اتـباع وحي الله من تمام التقوى ، فيكون هذا العطف والذي قبله معاً من قبيل عطف الخاص على العام ، وذلك لخطورة الأمرين معاً ، النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ، والأمر باتباع الوحي .

ويـرى جماعة آخرون عكس ذلك ، لأن الأمر بالتقوى والنهي عـن طاعـة الكافرين والمنافقين كلاهما داخل فيما أوحاه الله إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم .

ومـا يقـال هـنا في عطف الخاص على العام يقال في قوله سـبحانه ﴿ **وتوكـل على الله** ﴾ ، لأن التوكل على الله باب من أبواب التقوى، وهو كذلك مما أوحاه الله إليه ، وإنما خصه بالذكر بعد العموم السابق لأنه يعين على اتباع وحي الله وترك طاعة الكافرين والمنافقين ويحمل صاحبه على فعل ذلك .

---

[١] **تفسير القرآن العظيم (٣ / ٤٤٨)** .

المسألة الثامنة : قوله تعالى ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

إنمــا جمع في قوله (تعملون) على قراءة الجماعة بالخطاب مع أنه أفرد الأمر قبله في قوله (واتبع) للتعظيم ، أو لأن كل أمر أو نهي موجه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو له ولأمته من بعده ما لم يأت دليل يخصه بذلك الأمر أو النهي ، كما هو مقرر عند العلماء ، وأما على قراءة أبي عمرو البصري (يعملون) بياء الغيبة فالمراد به الكافــرون والمنافقون ، أي إن الله خبير بتدبيرهم وكيدهم لك ، مانعك من ضررهم وأذاهم ، ومجازيهم على ذلك .

المسألة التاسعة : قوله تعالى ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ :

هــذه الجملة وإن كانت توكيداً كما سبق فهي كذلك واقعة موقع المــثل ، ومستقلة كاستقلاله ، وهذا النوع من الأمثال كثير في القرآن الكريم [١] .

المسألة العاشرة : الإظهار في موضع الإضمار :

وذلك في فواصل الآيات ، وفي قوله سبحانه ﴿ **واتبع ما يوحى إلــيك مــن ربك** ﴾ أما الفواصل فهذه الجمل الثلاث فيها (**إن الله كان علــيماً حكيماً – إن الله كان بما تعملون خبيراً – وكفي بالله وكيلاً**) تأكيد وتعليل للأمر السابق عليها كما أسلفت ، وقد وضع الله اسمــــه

---

[١] روح المعاني (٢١ / ٢١٩) .

الشريف (**الله**) فيها موضع الضمير ، فلم يقل إنه كان عليماً حكيماً ، إنــه كان بما تعملون خبيراً ، وكفي به وكيلاً ، وإنما أظهر فيها زيادة فــي التأكــيد من ناحية ، وللتعظيم من ناحية أخرى ، أعني تعظيم الله تعــالى ، وتعظيم الأمر أو النهي ، ولأن هذا الاسم الشريف يدفع في القلــوب المؤمنة كل نزعة شر ، ويقيمها على أمر الله ، فتلبي أمر الله تعالى واقعاً في حياة الناس [١] .

وأما قوله عز وجل (**ما يوحى إليك من ربك**) فقد ذكر الرب مضافاً إليه صلى الله عليه وآله وسلم (**من ربك**) بدل الضمير: منا ، أو : مــنه ، لاستحضار معاني التربية والربوبية التي توجب الامتثال للأمــر ، فإنه الذي رباك بنعمه الكثيرة ، وتعهدك ورعاك ، ولا يزال فحري بك أن تتبع وحيه ، وتلزم أمره ونهيه [٢] .

المسألة الحادية عشرة : التعليل : وذلك في فواصل الآيات الثلاث ، وللتعلــيل أثــر عجيــب في النفوس ، تدفعها دفعاً إلى الامتثال للحكم المعلل .

فلو قلت لطالب مثلاً : ذاكر الصفحات الأخيرة من الكتاب جيداً لتململ وتضجر ، إذ يكفي أن يذاكر أغلب الكتاب ، لكنك إذا قلت له ،

---

[١] انظر : نظم الدرر (٦ / ٧١) ، وروح المعاني (٢١ / ٢١٩) ، ومن أسرار التعبير القرآني (٥٢) .

[٢] انظر : نظم الدرر (٦ / ٧١) ، وروح المعاني (٢١ / ٢١٩) .

فإن الاختبار سيأتي منها ، فإنه يبدأ بها ، بل ويقدم عليها بشغف وحب ليجيب على أسئلة الاختبار التي ستأتي منها ، ولله المثل الأعلى في ذلك .

يقول تعالى ﴿ **إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ [١]:

فقد جاءت هذه الجملة مستأنفة لإفادة تعليل الكلام السابق والحث عليه ، والكلام السابق فيه أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتقوى ،ونهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فالجملة تعليل للأمر والنهي السابقين عليها ، أو هو تعليل للنهي وحده دون الأمر ، كما يرى البعض ذلك ، وعلى كلا الأمرين فهو تعليل لحكم ، والعلة إذا جاءت بعد الحكم توجب قناعة عند الإنسان تحمله على امتثاله ، خاصة إذا كان الحكم شديداً على المكلف ، شاقاً على نفسه ، مخالفاً لهواه كما أسلفت .

فإذا كان كل من الأمر والنهي في الآية صادراً من عليم ، يحيط علمه بكل ما تكنه الصدور ، وتخفيه النفوس ، وتستره القلوب ، وكان كذلك صادراً من حكيم لا يوجد الأشياء إلا بغاية الحكمة والإتقان ، فإنه حري أن يستجيب له أفئدة ذوي البصائر ، يقول الألوسي : فالجملة تعليل للأمر والنهي مؤكد لوجوب الامتثال بها .

---

[١] سورة الأحزاب (١) .

وهــذا هــو الاستئناف الذي يقولون عنه إنه أشد اتصالاً من الوصل ، ويقــع كثيراً في فواصل الآيات القرآنية ، وإن شئت فقل : هو وصل بغــير أداة الوصل ، وهي الواو ، لأنه الوصل فيه يعتمد على اتصال المعنى بعضه ببعض [١] .

وقــد جعل العلامة أبو السعود قوله (**إن الله كان بما تعملون خبــيراً**) تعلــيلاً للأمــر بالاتــباع ، وتأكيداً لموجبه ، وذلك بطريق الترغيب والترهيب ، كأنه قيل : إن الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه ، فيرتب على كل منهما جزاءه ثواباً وعقاباً [٢] .

وما قيل في هذه وتلك من التعليل الذي يؤكد به مضمون الكلام يقال في قوله تعالى ﴿ **وكفى بالله وكيلاً** ﴾ [٣] .

المسألة الثانية عشرة : هذه الآيات الثلاث قد حوت جملاً من البلاغة ذكرت بعضه كالتأكيد ، والتعليل ، وذكر الخاص بعد العام ، والإظهار فــي موضــع الإضــمار ، والجمع في موضع الإفراد ، ونحو ذلك ، وبقي من ذلك أمور ، منها :

---

(١) انظر : نظم الدرر (٦ / ٦٨) ، وإرشاد العقل السليم (٧ / ٨٩) ، وروح المعاني (٢١ / ٢١٨) ، وفتح القدير (٤ / ٢٥٣) ، ومن أسرار التعبير القرآني (٥٠) .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم (٧ / ٨٩) ، وروح المعاني (١٢ / ٢١٩) ، وفتح القدير (٤ / ٢٥٣) .

(٣) سورة الأحزاب (٣) .

١ – المقابلة : وذلك بين الأمر والنهي (اتق – اتبع – توكل) و(ولا تطع) .

٢ – جـناس الاشـتقاق : وذلـك في قوله تعالى (وتوكل) ، و(وكيلاً) .

٣ – بـراعة الاستهلال : فإن هذا البدء مبني عليه كل ما يأتي في السورة بعد من أوامر ونواهٍ ، وتشريعات ، ونحو ذلك .

رابعاً : المعنى العام :

بـــدأ المولى سبحانه وتعالى هذه السورة المباركة بهذه الأوامر والنواهـــي [١] العامـــة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته معه ، وهي أمور جامعة ، فأمره بالثبات على تقوى الله سبحانه دون غيره ، والدوام عليها ، والازدياد منها ، وخشيته جل وعلا وحده دون سواه ، وأمـــره كذلك بطاعته سبحانه ، والبعد كل البعد عن طاعة غيره ، لا ســـيما أعداء هذا الدين من الكافرين المجاهرين في الكفر ، الممتنعين عـــن الإيمان ، والمنافقين المصانعين الساترين كفرهم ، وأمره كذلك باتـــباع وحـــيه ، وتـــرك الابتداع بأي شكل كان ، ولأي سبب وجد ، وأمره أخيراً بما يدفع الإنسان نحو تطبيق ما سبق ، وهو التوكل على الله في كل الأمور ، وترك التوكل على غيره .

وهذه الأمور هي الزاد الذي يعتمد عليه الدعاة ، وهي التي تقيم الدعوة على منهجها الخالص الواضح ، فالداعية لا يستمد إلا من الله ، ولا يتوجه إلا إليه ، ولا يثق إلا فيما عند الله ، ولا يتوكل إلا عليه .

أمـــا تقـــوى الله فهي قوة الشعور بالمراقبة الإلهية ، وهي التي تدفع صاحبها إلى الحذر والخوف من كل انحراف عن جادة الطريق ، وهي الحراسة الأمينة اليقظة التي تحرس الحق وترعاه ، وتحـــــرس

---

(١) إنما قلت الأوامر والنواهي مع أنه لا يوجد في الآيات الثلاث إلا نهي واحد ، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده ، كما هو مقرر عند الأصوليين .

فضـــائل النفس ومكارم الأخلاق فتدفع صاحبها إليها دفعاً حثيثاً ، وهي التـــي تبعد صاحبها عن كل إثم أو خطيئة ، حتى لا يقترب منها ، أو يقع فيها .

وأمـــا عدم طاعة الكافرين والمنافقين فلأنهم أعداء الله وأعداء المســـلمين ، ولا يمكن أن ينفع الإنسانَ عدوُّه خاصة إذا كانت العداوة فـــي الديـــن أو بســـبب الدين ، والذي يظن أن أعداء الله وأعداءنا قد ينفعونـــنا فهو واهم ، لأنه حين يعادون المسلمين يعادون الله تعالى أو يناصـــبونه العـــداء ، ولذلـــك جمع القرآن بين عداوة الكفار للمسلمين وعداوتهم لله ، يقول سبحانه ﴿ **وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن ربـــاط الخـــيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ [١] ، وقوله في قصة موســـى ﴿ **يـــأخذه عدو لي وعدو له** ﴾ [٢] ، وقوله سبحانه ﴿ **يا أيها الذيـــن آمـــنوا لا تـــتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾ [٣] ، وذلك لأن المســـلمين أولـــياء الله تعالى ومن يعادي الله فقد عادى أولياءه ، ومن عادى أولياءه فقد عاداه ، ولهذا يدافع الله عن أوليائه ، يقول سبحانه : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾ [٤] .

---

[١] سورة الأنفال (٦٠) .

[٢] سورة طه (٣٩) .

[٣] سورة الممتحنة (١) .

[٤] سورة الحج (٣٨) .

وأما اتباع وحي الله تعالى فلأنه السبيل إلى استجلاب نصرة الله تعـــالى للمسلم ، واستحقاق محبة الله سبحانه للعبد ، وعدم الوقوع في المشـــقة والعنـــت ، روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يقول الله تعـــالى " مـــن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشـــيء أحـــب إلـــيّ ممـــا افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه .... " (١) .

فوحي الله سبحانه وتعالى إنما جاء لمصلحة المسلمين ومراعاة ما يحتاجون إليه وما يتناسب مع طبيعتهم وخلقتهم أو بعبارة جامعة ما يحقق لهم الهداية في الدنيا والسعادة في الآخرة .

وأمـــا التوكل على الله سبحانه فلأنه اليقين الذي يخالط شغاف القلـــب فيستقر القلب وتثبت الأقدام فيواجه المسلم الصعاب غير مبال ولا هيَّاب لأنه قلبه قلب موصول بالله تعالى لا يخاف غيره ولا يخشى ســـواه وذلك لأنه يثق في الله ويعتمد عليه ولا ينظر إلى غيره يعلم أن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب

قوله تعالى :

﴿ مـــا جعـــل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بـــأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقســط عــند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ولـــيس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

أولاً : معاني المفردات :

جعـــل : لفـــظ عام في الأفعال كلها ، وهو أعم من فعل وصنع وعمـــل وطفـــق وأنشأ وسائر أخواتها ، ولأنها بهذا العموم في الدلالة علـــى المعنى استخدمت في لغة العرب وأساليب القرآن بمعان متعددة أوصـــلها بعضهم إلى خمسة معان ، وبعضهم إلى سبع ، وبعضهم إلى أكثر من ذلك .

لكـــن المـــتأمل في استخدام القرآن لهذا اللفظ يجده يرجع إلى معـــان ثلاثـــة : الأول بمعنى أوجد وأنشأ وخلق ، ومنه قوله تعالـــى **﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾** [١] ، والثاني : بمعنى صير حقيقة أو

---

[١] سورة الأنعام (١) .

حكماً ، وعلى هذا يحمل قوله سبحانه وتعالى ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشـاً ...** ﴾ [١] ، والثالث : بمعنى حكم وشرع ، حقاً كان ذلك أو بـاطلاً ، ومـنه قولـه جل وعلا ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ [٢]، وقوله سبحانه ﴿ **وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله** ﴾ [٣] فالآية الأولى في الحق والثانية في الباطل [٤] .

وقد تكررت جعل في آية الأحزاب التي نحن بصددها باختلاف في معناها ، وسيأتيك نبأ ذلك عما قليل بإذن الله تعالى .

والـرجل : مختص بالذكر من الإنس ، وربما أطلق على ذكر الجـن أيضاً ، ويلاحظ فيه معاني القوة والجلادة ، فيقال : هذا أرجل الرجليـن ، وفـيه رجولة ورجولية ، وجمعه رجال ، والرجل – بفتح الـراء وكسر الجيم – هو الذي يمشي على رجليه ، وكذلك الراجل ، وجمعـه رجـال أيضاً ، ومنه قولهم : رجل رجل – بفتح الراء وضم الجيم في الأولى ، وبفتح الراء وكسر الجيم في الثانية – أي قوي على المشي ، قال تعالى ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ..** ﴾ [٥] ، وقال

---

[١] سورة البقرة (٢٢) .

[٢] سورة الحج (٧٨) .

[٣] سورة الزمر (٨) .

[٤] انظر : معجم مقاييس اللغة واللسان (جعل) ، ومفردات ألفاظ القرآن (١٩٦ ، ١٩٧) ، والبرهان (٤ / ١٢٨ – ١٣٥) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ٢٠٤ – ٢١١) .

[٥] سورة البقرة (٢٣٩) .

سبحانه ﴿ **وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق** ﴾ [١] ، أي يأتوك ماشين وراكبين [٢] .

والقلب : مصدر قلب الثلاثي أو اسم منه ، وهو بكل اشتقاقاته يعـــود إلى معنى التغيير والتحويل ، حساً كان أو معنى ، يقال : قلب الشيء : حولـــه من مكان إلى آخر ، أو من وضع إلى آخر ، أو من حالـــة إلـــى أخرى ، وقلب الشيء إليه رده ، كأنه حوله إليه ، وقلب الشـــيء – بتشـــديد اللام – مبالغة في قلب ، فتقليب الشيء : جعله لا يســـتقر على حال ، وتقليب اليد والكف كناية عن الندم ذكراً لحال ما عليه النادم من انقلاب أمره ، ومنه ﴿ **فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها** ﴾ [٣] وتقليب الأمر: البحث فيه من جميع نواحيه ، أو عرضه في صـــور مخـــتلفة ، والانقلاب رجوع أو تحول وفي كلا الأمرين يكون حســـياً ومعنوياً ، ومنه ﴿ **انقلـــب على وجهه** ﴾ [٤] ، و﴿ **انقلبتم على أعقابكم** ﴾ [٥] ، وهو يفيد معنى الرجوع عن العقيدة والرأي في خزي والتقلب : تحرك أو تنقل أو تحول ، وأما القلب فهو خالص كل شيء

---

(١) سورة الحج (٢٧) .

(٢) انظر : معجم مقاييس اللغة واللسان (رجل) ، ومفردات ألفاظ القرآن (٣٤٤ ، ٣٤٥) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ٤٧٦ ، ٤٧٧) .

(٣) سورة الكهف (٤٢) .

(٤) سورة الحج (١١) .

(٥) سورة آل عمران (١٤٤) .

وشريفه ، ومنه قلب الإنسان ، إذ هو أشرف شيء فيه ، وسمي كذلك لسرعة تقلبه بين الإيمان والكفر ، أو الطاعة والمعصية ، ونحو ذلك ، ولذلك كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " ، فسأله جماعة من أصحابه وبعض أزواجه عن سر إكثاره من هذا الدعاء ، فقال : " إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يقلبها – أو قال : يصرفها – كيف يشاء ، أو يصرفه حيث يشاء "[١] وقد جعل القلب

---

[١] هذا الحديث رواه جماعة من الصحابة رضي الله عنهم بروايات مختلفة :

أولها : حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ، صحيح مسلم (٤ /) وانظر : المنهاج شرح صحيح مسلم (١٦ / ٢٠٣ ، ٢٠٤) ، ورواه أحمد في مسنده (١١ / ١٣٠) .

ثانيها : حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، رواه البخاري في الأدب المفرد باب دعوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، انظر : فضل الله الصمد (٢ / ١٣٤) ، ورواه الترمذي ، كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن (٤ / ٥٥) ، وقال حديث حسن ، ورواه ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٢ / ١٢٦٠) ، ورواه الحاكم في المستدرك ، كتاب الدعاء (١ / ٥٢٦) وقال :

ثالثها : حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه ، رواه ابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ، وقال صاحب الزوائد : إسناده صحيح ، سنن ابن ماجة (١ / ٧٢) ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، انظر : موارد الظمآن ، كتاب الأدعية ، باب أدعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٦٠٠) .

رابعها : حديث أم سلمة رضي الله عنها ، رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ٨٩ (دون ترجمة) وقال : هذا حديث حسن ، سنن الترمذي (٥ / ٣٠٩ ، ٣١٠) ورواه أحمد في مسنده (٤٤ / ١٣٨ – ١٣٩ ، ٢٠٠ – ٢٠١ ، ٢٧٨) ، ورواه الطيالسي في مسنده (٣ / ١٨١ ، ١٨٢) ، وغيرهم . =

فـــي كثـــير من آيات القرآن موضعاً ومكاناً لشتى الانفعالات والعقائد والاتجاهات العقلية والفكرية المختلفة ، أو كما يقول الراغب : " يعبر بـــه عـــن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلـــك " [١] ، فقد جعل القلب أداة للتفكير والتعقل ، وموضعاً للهداية والاطمئنان والسكينة والرأفة والرحمة ، والتطهير، والخوف والوجل ، والقســـوة والاشمئزاز ، والحسرة والغيظ ، والإيمان والتقوى ، والشك والارتياب ، والكفر والنفاق والإنكار، ووصفت القلوب بالفقه والعمى ، وبـــأن بعضـــها يخـــتم علـــيها ، أو يطـــبع عليها ، إلى غير ذلك من المعانـــي [٢] ، وســـأذكر بإذن الله تعالى من أنباء القلب ما أرجو أن يكون فيه الكفاية ، والله الموفق .

= خامسها : حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، رواه أحمد في مسنده (٦ / ٤١ ، ١٥١ / ٤٣ ، ٢٣٠) ، وغيره .

سادسها : حديث عاصم بن كليب الجرمي عن أبيه عن جده ، رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب رقم : ١٢٠ (دون ترجمة) وقال : هذا حديث غريب ، سنن الترمذي (٥ / ٣٣٩) .

سابعها : حديث جابر رضي الله عنه ، رواه الحاكم في مستدركه ، كتاب

(٢ / ٢٨٨ ، ٢٨٩) ، وقال :

[١] المفردات (٦٨١) .

[٢] انظر معجم مقاييس اللغة واللسان (قلب) ، ومفردات ألفاظ القرآن (٦٨١ ، ٦٨٢) ، ونظم الدرر (١ / ٣٩) ، وروح المعاني (١ / ٢٢٠ ، ٢٢١) ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٤١١ – ٤١٦) .

أقــول : الــذي أراه – والله أعلــم – أن القلب اسم لهذه الآلة العجيبة التي تسكن ذلك التجويف الأيسر من الصدر ، ويطلق على هذا القلــب كلمات أخرى أو قل يسمى بأسماء مختلفة ويوصف بأوصاف متبايــنة فــي الظاهــر لكنها قريبة في الحقيقة لأن كلاً منها يدل على معنى من معانيه أو عمل من أعماله ، من هذه الأسماء : القلب والفؤاد والنهــية واللب والحجر والعقل إلى غير ذلك من الأسماء والأوصاف التــي تدل على معنى في القلب أو عمل له ، وسأذكر أولاً هذه الألفاظ مبيــناً علاقــتها بالقلب ثم افرق بين أسماء القلب أو صفاته من جهة وأعمال القلب من جهة أخرى .

الفــؤاد :

أصــل الفأد الاشتعال وشدة حرارة الشيء ، فيقال لحم فئيد أي مشــوي ، ويقال إنما سمي الفؤاد كذلك لحرارته وتوقده ، ويطلق على قلــب ذي حــي إنساناً وغير إنسان ، وبعضهم قيد إطلاقه على القلب باعتبار معنى التفؤد فيه أي التوقد والاشتعال، ولعل الاستعمال القرآني يؤيــد ذلك فإن أكثر مواضع وروده في القرآن يلحظ فيه ملحظ خاص إما من فضل تأثر وإما من اقترانه بالسمع والبصر أو بإسناد الرؤية أو الإصــغاء إلــيه أو نحــو ذلك من المعاني التي لا تكون إلا في القلب المــتوقد المشــتعل ذكاءً ، وأكثر ما جاء منسوباً إلى الأفراد إما للنبي صلى الله

عليه وآله وسلم كقوله تعالى ﴿ **وكلاً نقص عليك من أنبـــاء الرسل ما نثبــت به فؤادك** ﴾ [١] ، وقوله سبحانه ﴿ **كذلك لنثبت به فؤادك ورتل القرآن ترتيلاً** ﴾ [٢]، وقوله جل وعلا ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ [٣] وكما جاء في الحديث عن أم موسى في قوله سبحانه وتعالى ﴿ **وأصبح فــؤاد أم موســى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** ﴾ [٤] .

وعلى هذا فالفؤاد اسم من أسماء القلب روعي فيه معنى خاص لكن البعض الآخر يرى أنه جزء من القلب فهو باطن القلب أو غشاء القلــب والقلــب حبته وسويداه ، يؤيده قول النبي صلى الله عليه وآله وســلم " ... ألين قلوباً وأرق أفئدة " [٥] ، والفؤاد رقيق تسرع إمالته والقلب الغليظ القاسي لا ينفعل لشيء [٦] .

---

(١) **سورة هود (١٢٠) .**

(٢) **سورة الفرقان (٣٢) .**

(٣) **سورة النجم (١١) .**

(٤) **سورة القصص (١٠) .**

(٥) **رواه أحمد في مسنده بلفظه والطبراني بمعناه ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد بعد أن ذكر الحديث : إسناده حسن . انظر : مسند أحمد (٢٨ / ٦٢٥) وبغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠ / ٣١) .**

(٦) **انظر : مفردات ألفاظ القرآن (ص ٦٤٦ ، ٦٤٧) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٣٠٧) ، والكليات (ص ٦٩٦) .**

النهيـــة :

النهـــية : هي العقل وإنما سمي بذلك لأنه ينهى عن القبائح أو ينهى صاحبه ، أو لانتهاء الذكاء والمعرفة والنظر إليه ، أو لأنه نهاية مـــا يمنح العبد من الخير المؤدي إلى صلاح الدنيا والآخرة ، أو لأنه العقل الذي انتهى من المحسوسات إلى معرفة ما فيه من المعقولات ، ولهذا أحيل أربابه على تدبر معاني المحسوسات في نحو قولـــه تعالى ﴿ **وأنـــزل مـــن السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعـــوا أنعـــامكم إن فـــي ذلك لآيات لأولي النهى** ﴾ (١) ، وقولـــه ﴿ **أفلم يهد لهم كما أهلكنا قبلكم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى** ﴾ (٢) .

وسيأتي أن العقل اسم عمل من أعمال القلب وليس اسماً للقلب نفسه على الراجح مما سأذكر أدلته بعد إن شاء الله ، فإذا كانت النهية بمعنى العقل فهي ما ينتهي إليه القلب من العمل والمنفعة ، وإن كانت اســـماً من أسماء القلب كانت باعتبار نهيه عن القبائح أو نهي صاحبه عن الوقوع فيما يتنزه عنه الإنسان (٣) .

---

(١) سورة طه (٥٤) .

(٢) سورة طه (١٢٨) .

(٣) انظر : مفردات ألفاظ القرآن (ص ٨٢٧) ، الكليات (ص ٦٢٠) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٧٦٩) ، معاجم مفردات القرآن (ص١٩) .

إلى المعنويات فاستعمل في العقل أو القلب كما مر [١] .

الحجـــر :

الحجر اسم من أسماء العقل وقيل له ذلك لكون الإنسان في منع مـــنه مما تدعو إليه نفسه أو بعبارة أخرى لأنه يحجر صاحبه ويمنعه ممـــا تدعـــو إليه نفسه ، أو لحجر صاحبه عن ركوب المناهي ، وكل معان قريبة من بعضها ، وأصله من الحجر أي المنع [٢] .

العقـــل :

إنما أخرت الكلام عن العقل عن هذه الأسماء السابقة لأن أكثر العلمـــاء حيـــن يذكرون هذه الكلمات يقولون إنها اسم للعقل وقل من ينسبها إلى القلب وذلك مثل النهية واللب ، وسنرى عما قليل أن العقل عمل من أعمال القلب وليس اسماً له ولا اسماً لآلة أخرى .

والعقـــل هـــو اســـم للقوة المتهيئة لقبول العلم واسم للعلم الذي يســـتفيده الإنسان بتلك القوة ، فكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقـــل فإشـــارة إلـــى المعنى الأول ، وكل موضع ذم الله الكفار فيه بعدم العقل فإشارة إلى المعنى الثاني، وأصل العقل في اللغة الإمساك

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص٧٣٣) ، الكليات (ص ٧٩٨) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٥٦٠) ، معاجم مفردات القرآن (ص ٢٠) .

(٢) انظر : مفردات ألفاظ القرآن (ص ٢٢٠) ، الكليات (ص٦٢٠) ، معجم ألفاظ القرآن الكريم (١ / ٢٥١) ، معاجم مفردات القرآن (ص ٢٠) .

والاستمساك يقال عقل البعير أمسكه بالعقال أو بالحبل ، وعقل البطن بـــالدواء وعقلت المرأة شعرها ، وعقل الرجل لسانه كفه ، ومنه قيل للحصن معقل ، والعقيلة من النساء هي التي تعقل أي تُحرس وتُمنع أو تُحبس لفضلها واكتمال محاسنها ، ومن هنا قيل لتلك القوة في الإنسان عقـــل ، إمـــا لكونـــه سبباً لتقييد الإنسان بها وإما لكونها مقيدة له عن تعاطـــي مـــا لا يجمل أو لكونه مقيداً به من بين سائر الحيوان [١] ، ويشير كلام أبي البقاء الكفوي إلى أنه – أي العقل – يطلق على معان مـــتعددة ، فكمـــا ذكر قول الراغب في أنه القوة المتهيئة لإدراك العلم وقبولـــه وللعلم الناشئ عنها فقد ذكر أقوالاً أخرى فيه منها قوله : نور روحانـــي به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية وابتداء وجوده عند اجتنانه الولد ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ [٢] ، وهو بذلـــك يشير إلى المخ ، لأن مخ الإنسان لا يُخلق دفعة واحدة إنما يولد بنصفه وينمو نصفه الآخر منذ ولادته إلى بلوغه فيكتمل عند البلوغ ، ويؤيـــد هذا أنه ذكر بعد قوله هذا بقليل اختلاف العلماء في محل العقل فقـــال : واختلف في محل العقل فذهب أبو حنيفة وجماعة من الأطباء إلـــى أن محل العقل الدماغ ، وذهب الشافعي وأكثر المتكلمين إلى أن محله القلب وهو مستعد لأن تتجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها

---

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن(ص ٥٧٧ ، ٥٧٨)، الكليات (ص ٦١٧ – ٦١٩) معجم ألفاظ القرآن الكريم (٢ / ٢٣٤) ، معاجم مفردات القرآن (ص ١٩) .

(٢) الكليات (ص٦١٨) .

وقبولــه وللعلم الناشئ عنها فقد ذكر أقوالاً أخرى فيه منها قوله : نور روحانـــي به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية وابتداء وجوده عند اجتنانه الولد ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ [٢] ، وهو بذلــك يشير إلى المخ ، لأن مخ الإنسان لا يُخلق دفعة واحدة إنما يولد بنصفه وينمو نصفه الآخر منذ ولادته إلى بلوغه فيكتمل عند البلوغ ، ويؤيــد هذا أنه ذكر بعد قوله هذا بقليل اختلاف العلماء في محل العقل فقــال : واختلف في محل العقل فذهب أبو حنيفة وجماعة من الأطباء إلــى أن محل العقل الدماغ ، وذهب الشافعي وأكثر المتكلمين إلى أن محله القلب وهو مستعد لأن تتجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلهــا وقــيل مشترك بينهما ، ثم ذكر عن علي رضي الله عنه قوله : العقل في القلب والرحمة في الكبد والرأفة في الطحال والنفس في الرئة [٣] وسنعود إلى قول أبي البقاء عما قريب .

وقفة مع هذه الكلمات :

إذا كان هذا الكلام السابق هو حصيلة معارف السابقين وعلومهم ممن خبروا لغة العرب وعايشوها فليس معنى ذلك أن نسلم لهم في كل شيء إلا بدليل .

والحقيقة التي لا تدع مجالاً للنقاش وإن كان البعض يرفضهــا

---

(٢) **الكليات (ص٦١٨) .**

(٣) **انظر : الكليات (ص٦١٩) .**

نظراً لعدم استيعابه لها ، أو لجهله ببعض مضامينها ، أو لاستئثار الله تعالى بعض ما يتعلق بها دون العباد ، أقول إن هذه الحقيقة تنص من خلال استعمالات القرآن وأساليبه ودلالات الألفاظ والتراكيب فيه على أن القلـب آلـة واحدة لها أسماء مختلفة ولها أعمال متنوعة يتميز في شأنه ذلك عن بقية أجزاء جسد الإنسان وأعضائه ، ولعل هذا هو السر في أن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قد جعل القلب هو أهم جـزء في الجسد يصلح بسبب صلاحه بقية أجزاء الجسد ويفسد بسبب فساده بقية أجزائه أيضاً ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " ألا وإن فـي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله وألا وهي القلب " [١] .

وصلاح القلب وفساده هنا يشمل الحسي منه والمعنوي أي يشمل صـلاح الخلق والدين بالإيمان واليقين كما يشمل صحة البدن وعافيته بالمحافظة على صلاح هذا القلب وعدم تطرق الفساد الحسي إليه .

والقـول بـأن الفؤاد والقلب اسم لمسمى واحد أمر أوافق عليه العلماء لاسيما ذلك الفارق الدقيق الذي أشار إليه الراغب في مفرداته، وأما القول بأن العقل والنهية والحجر على اعتبار أن الأخيرين اسمان للعقل فهذا مما لا أوافق عليه ، ذلك لأن القرآن الكريم والسنة المطهرة

---

[١] رواه البخاري في كتاب الإيمان باب فضل من استبرئ لدينه(فتح الباري ١ / ١٣٦) وفي كتاب البيوع باب الحلال بين والحرام بين (فتح الباري ٤ / ٢٩٠) ورواه مسلم في كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٣ / ١٢١٩ ، ١٢٢٠) وغيرهما .

يثبـــت أن العقل بل والفهم بل ونوع من الرؤية والسماع أو الإصغاء ، كــل ذلـــك أعمال من أعمال القلب الكثيرة التي لا نعلم عنها إلا النذر اليســـير ، ولعل الله جل شأنه يفتح لبعض الباحثين أبواباً مغلقة يلجون منها إلى معاني جديدة لم أقف عليها ولم يقف عليها غيري .

الأدلة على ذلك :

١ – يقـــول الله تعـــالى ﴿ **ولقـــد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [١] فالآية تتحدث عن القلوب والأعين والآذان وتثبت لكل واحد منها عملاً يجـــب علـــيها القيام به ، لكن هؤلاء الكفار الذين خلقهم الله لجهنم لم يســـتفيدوا مـــن قلوبهم ولا أعينهم ولا آذانهم حيث منعوها عن عملها المنوط بها فلم يبصروا بأعينهم ولم يسمعوا بآذانهم وقبل ذلك لم يفقهوا بقلوبهم ، ويلاحظ أنه قد قرن هذه الثلاثة بأعمالها عن طريق باء الآلة التي يقول عنها النحاة إنها للاستعانة أو للاستعانة الآلية ليؤكد على أن كـــل واحد من هذه الثلاثة له عمل مترتب عليه ترتب عمل الآلة على وجودهـــا وبذلك يتأكد أن الفقه الذي هو نوع دقيق من الفهم عمل من أعمـــال القلـــب وليس من أعمال العقل كما هو مشهور لدى العامة بل وبعض العلماء .

---

[١] سورة الأعراف (١٧٩) .

٢ – يقول الله سبحانه وتعالى **﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾** [١] ، فالناظر في هذه الآية يجد أن الله سبحانه وتعالى نسب إلى القلب عملين اثنين ، أما الأول فهو العقل بمعنى الحفظ والقيد ، وهذا واضح من استخدام اللغويين لكلمة العقل ومشتقاتها ، وقد أشار إلى ذلك الخليل بن أحمد وجماعة من اللغويين في معاجمهم [٢] ، فعقل البعير قيده وحفظه من الشرود ، والعقال ليحفظ ما على الرأس من الوقوع بفعل الريح وهكذا وعليه فيكون القلب كذلك هو آلة حفظ المعلومات ، فالإنسان إنما يحفظ بقلبه لا بعقله إذ العقل ليس آلة للحفظ ولا لسواه من الأعمال الفكرية كما مر وكما سيأتي .

والآية جد واضحة في أن القلب هو الذي يعقل **﴿ قلوب يعقلون بها ﴾** مستخدماً باء الاستعانة في هذه الآية كسابقتها ، وأما كيف يحفظ القلب فلم أقف عليه بعد ، لأن ذلك لا يزال محجوباً عن الناس ، وإن كنت أستطيع أن أضرب لذلك مثالاً يظهر منه أن القلب هو المهيمن على عملية الحفظ عن طريق بعض أجهزة الجسم الأخرى كالمخ وهو : لو أنك ذهبت لقضاء مصلحة لك في إحدى الوزارات وقُدر لك أن تدخل

---

(١) سورة الحج (٤٦) .

(٢) انظر : العين للخليل بن أحمد ومعجم مقاييس اللغة ولسان العرب مادة (ع ق ل)

علـــى الوزير فذكرت له شأنك ومصلحتك فاستعمل الهاتف ليأمر من دونـــه بأن ينهوا لك المصلحة وأنت جالس بين يديه ففعلوا وأنجزوا ، فـــإنك تخـــرج وتقول لقد قضى لي الوزير مصلحتي ، والحقيقة أنه لم يقضـــها بنفســـه إنمـــا قضاها الموظفون في وزارته لكنك تنسب لـــه الفضـــل دون غيره منهم لأنه العقل المدبر والرأس المهيمن على هذا المكـــان ، فكذلك القلب هو الذي يأمر بعض أجهزة الجسد كالمخ مثلاً أو يجعلهـــا بطـــريقة أو بأخرى تحفظ وتعي هذه المعلومات وبالمثال يتضـــح المقـــال ، وهـــذا هو السر في أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل القـــرآن الكريم من عنده على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله جل شأنه ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** ﴾ [١] فقد جعل نزول القرآن على القلب فهو الذي يتلقى نصوص الوحي ولا يظن إنسان أن يدعي أن هذا بطريق المجاز فقد ذكر الله أن النازل لفظ متلو ومسموع بلسان عربي مبين .

وفـــي الآية دليل آخر أو إلصاق عمل آخر من أعمال القلب به عـــن طـــريق مفهوم المخالفة في قوله ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمـــى القلوب التي في الصدور** ﴾ فقد أثبت للقلوب إبصاراً وبطريق المقـــابل أثبـــت أنه قد يلحقها العمى فإذا أبصر القلب أصاب النجعة ، وإذا عمي القلب فقد هلك صاحبه ، ولا يدعي مدع أن ذلك على سبيل

---

[١] سورة الشعراء (١٩٣ ـ ١٩٥) .

المجاز أيضاً إما لأنه لا يدرك رؤية القلب أو يحسها لخلوه منها ، وإما لعدم استيعابه لمعناها وكأن القرآن حين نزل يعرف أن هؤلاء سيقولون بالمجـاز فـي هـذا المعنى فرد عليهم بنفي المجاز من جهة واضحة وبطـريق ظاهـرة فأثبت أن التي تعمى هي القلوب وليست الأبصار وأثبـت أنهـا ليست قلوباً مجازية التعبير فحدد موطنها فهي قلوب في الصـدور والمعنى الحسي للصدر يؤكد المعنى الحسي الحقيقي للقلب الذي هو آلة الإبصار ، لكن القلوب التي ترى هي قلوب مؤمنة واعية مشـتعلة ذكـية وقـادة يغلب أن يطلق عليها حال الرؤية لفظ الفؤاد ، وذلـك هـو السـر فـي نسبة الرؤية إلى الفؤاد ، ويؤكد هذا ويقويه ويعضـده قـول الله سبحانه وتعالى مخبراً عن رسوله صلى الله عليه وسـلم في مطلع سورة النجم ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى . أفا تمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . إذ يغشى السـدرة ما يغشى . مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكـبرى** ﴾ [١] فقد أثبت للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في هـذه الآيـة تحققه من الإبصار وتمكنه منه بنوعيه بعيني رأسه الذي عـبر عنه بالبصر ، وبعيني قلبه الذي عبر عنه برؤية الفؤاد ، ولأن ذلـك أمر قد يتردد فيه البعض أو ينكره جاء مؤكداً في الآية الأخيرة من هذه الآيات باللام الموطئة للقسم وبقد وبالفعل الماضي الدال على

---

[١] سورة النجم (١١ – ١٨) .

تحقق الرؤية ووقوعها .

واللغة تعضد هذا المعنى وتقويه فكلمة رأى عند أصحاب المعاجم وكتب النحو من اللغويين تعبر عن رؤية البصر ويسمونها رأى البصرية وتعبر كذلك عن رؤية القلب أو الفؤاد ويسمونها رأى العلمية وتعبر ثالثاً عن رؤية الفكر والاستنتاج والاجتهاد والاستنباط وتعبر رابعاً عن رؤية النوم ، ويفرقون بين هذه الأربع بأن الأولى تنصب فعلاً واحداً والثانية تنصب فعلين ومصدرهما واحد وهو الرؤية ، والثالث يخالفهما في المصدر فمصدره الرأي وليس الرؤية ، والرابع يخالف الجميع فمصدره الرؤيا بالألف فتقول في الأول رأى علي أخاه وفي الثاني رأيت الاستقامة ناجعة ومفيدة ، وفي الثالث رأيت في الأمر رأياً ، وفي الرابع رأيت في المنام رؤيا ، ولعمري بأي آلة يرى الإنسان رؤياه في نومه أي البصر المتوقف أو هو العين المغمضة إن الذين لا يعترفون إلا بالحس يحارون جواباً على ذلك لأنهم لا شك صائرون إلى أن شيئاً غير محسوس أو آلة خفية في الجسد هي التي تقوم بهذا ونحن نقول لهم إن الذي يرى في منامه هو القلب وإن كانت العلوم المادية لم تكتشف سر ذلك بعد كما أنها لم تكن تعرف الكثير من الأسرار، وبهذا يبلس الذين لا يتحاكمون إلا إلى الحس ولا يعترفون إلا بالمادة لأنهم سيجدون في جسدهم وبين جوانحهم أسرار لا تعرف إلى المادة سبيلاً ولا إلى الحس طريقاً .

٣ – يقول الله سبحانه ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخـــرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون** ﴾ [١] ، فقد أسند الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الإصغاء إلى الأفئدة كما أسند الرؤية من قـــبل إلـــى فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي هنا إما باعتبار أصـــل الخلقة في القلب فكل الناس يُخلقون بقلوب وقادة مشتعلة لكنهم يهملونهـــا أو يعطلونهـــا فتتبلد تلك القلوب ، وإما باعتبار ما يجب أن يكون عليه القلب ، وإما على طريق تشبيه قلوب الكافرين أو إن شئت فقل شياطين الإنس والجن المشار إليهم في الآية السابقة في حال شدة تعلقهـــا بعـــداوة الأنبياء والمؤمنين واهتمامها بذلك وانشغالها بكل ما يطيل أمد العداوة ويؤكدها بالقلوب الثاقبة المتوقدة أو إلى غير ذلك من المعاني .

والإصغاء أدق من الاستماع ومعلوم أن الاستماع يكون بالأذن فالتعبـــيرات الســـابقة في الآيتين السابقتين ﴿ **أو آذان يسمعون بها** ﴾ تشـــير إلـــى أن الأذن يسمع بها الإنسان أو أن السمع عمل الأذن لكن هناك نوع من السماع ومن الإنصات ومن الإصغاء إنما هو من عمل القلب وإن شئت فقل إنه من عمل الفؤاد .

٤ – عـــن أبـــي هريـــرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين

---

(١) **سورة الأنعام (١١٣) .**

مـــا لا عيـــن رأت ولا أذن ســـمعت ولا خطر على قلب بشر " يقول أبوهريرة رضي الله عنه : اقرءوا إن شئتم ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ [١]. فالحديث القدسي فيه تعبير يسترعي الانتباه ويســـتدعي الـــتأمل ، ألا وهـــو ولا خطـــر على قلب بشر فقد أسند الخطرات أو نسبها إلى القلب والخطرات هي التخيلات والتأملات وما يـــرد على القلب من معاني وصور وكأنها بالتعبير الحديث هي التخيل والتصـــور القلبي ولم يقل الله تعالى ولا خطر على بال بشر ولا على ذهـــن بشـــر ولا علـــى مـــخ بشر كما يدعي الماديون من أن التخيل والاستنتاج إنما يكون بالمخ أو بالعقل أو بالفكر .

فهذه الآيات وهذا الحديث كل واحد منها يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن القلب والفؤاد بل واللب وغير ذلك من هذه الأسماء إنما هي أسماء لمسمى واحد ألا وهو القلب .

ويؤكد كل ذلك ثانياً إلى أن للقلب أعمالاً كثيرة يعمل بها باعتبار أصل خلقته وتوقده واشتعاله فهو يسمع ويرى يفقه ويعقل يتخيل ويتأمل إلى غـــير ذلك من الأعمال التي قد تخفى علينا وتتكفل مرور الأيام ببيانها وهو قبل ذلك كله يُصلح الجسد كله حين يَصلح هو في نفسه .

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة (فتح الباري ٦ / ٣١٨) وفي كتاب التفسير، سورة السجدة باب " فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين " (فتح الباري ٨ / ٥١٥ ، ٥١٦) وفي كتاب التوحيد باب قولـــه تعالى " يريدون أن يبدلوا كلام الله " (فتح الباري ١٣ / ٤٦٥) ورواه مسلم في أول كتاب الجنة وصفة نعيمها (٤ / ٢١٧٤ ، ٢١٧٥) وغيرهما . والآية (١٧) من سورة السجدة .

ويؤكـد كـل ذلك مرة ثالثة على أن ذلك القلب مخلوق عجيب لا يزال بحاجة إلى شداة العلم وراغبي البحث حتى يدركوا شيئاً من أسرار كنهه وبعضاً من عجائب صنعة الله فيه ليس عن طريق التشريح والطب إنما عن طريق التأمل في الآيات والأحاديث بالتأمل في ألفاظها وبتدبر معانيها وبالوقوف عند دلالات السياق فيها .

الجـــوف :

الجـوف هـو المكان المفرغ بين الكتفين والحقوين وهو يشمل الصـدر والبطن معاً والشيء المجوف هو المفرغ ، والقلب يكون في الصـدر علـى حد قوله سبحانه وتعالى ﴿ **ولكن تعمى القلوب التي في الصـدور** ﴾ [١] وفـي الجوف على التعبير بالأعم لأن الجوف يشمل الصدر والبطن معاً ، أما الصدر فهو الجهة العليا من الجوف [٢] .

الأزواج : جمـع زوج وهـو يطلق على كل اثنين يتشابهان في أصل الخلقـة أعنـي أن يكون من جنس واحد أو نوع واحد ويكمل أحدهما الآخر وعلى هذا فيمكن أن يعرف الزوج بأنه اثنان يتشابهان ويكتملان والأصـل فيه ألا يقال على المفرد الواحد إلا بوجود ثان له على هذا الشرط فلا يقال للرجل العزب الذي لم يتزوج إنه زوج باعتبار زواجه من امرأة أخرى إلا بعد أن يتحقق هذا الزواج .

---

(١) **سورة الحج (٤٦) .**

(٢) **انظر : لسان العرب (ج و ف) .**

أهم المصادر والمراجع

* إرشــاد العقــل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) لأبي السعود محمد بن العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

* البحر المحيط لأبي حيان طبعة دار الفكر بيروت١٤١٢هـ / ١٩٨٢ م .

* الـــبرهان فـــي علوم القرآن للزركشي ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

* تدبر أسرار التنزيل للدكتور جودة محمد المهدي ، مكتبة تاج بطنطا ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* الــتعريفات للشــريف علــي بن محمد الجرجاني ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

* تفســير القرآن العظيم : لابن كثير ، دار الحديث القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

* جــامع البيان في تفسير القرآن للطبري ، المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٣٠هـ .

* الجامع لأحكام القرآن لأبي محمد أحمد الأنصاري القرطبي دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

* جواهـــر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد الله ابـــن محمـــد الصديق الغماري ، مكتبة القاهرة ، د. ت . انتهى تأليفه سنـــة ١٣٨٥هـــ

* حرز الأماني ووجه التهاني(الشاطبية) لأبي القاسم بن ميرة الشاطبي ضبط محمد تميم الزعبي ، دار المطبوعات الحديثة ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ١٤١٠هــ / ١٩٩٠م .

* الـــدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ، مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة ١٤١٠هــ / ١٩٩٠م

* روح المعاني للألوسي ، دار الفكر ١٤٠٢هــ / ١٨٨٢م .

ســـنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث القاهرة ١٤١٤هــ .

* سنن الترمذي دار الفكر بيروت ١٤١٤هــ / ١٩٩٤م .

* السنن الكبرى للبيهقي ، طبعة الهند

* الســـنن الكـــبرى للنسائي طبعة دار المعرفة بيروت ط ٣ ، ١٤١٤هــ .

* صحيح البخاري ، انظر فتح الباري

* صـــحيح مســـلم بتحقـــيق محمـــد فؤاد عبد الباقي ، ط دار بيروت

* عـــناية القاضــــي وكفاية الراضي للشهاب الخفاجي " حاشية الشــهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي " دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٧هـــ / ١٩٩٧م .

* فــتح الــباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٩٠هـــ .

* فتح القدير للشوكاني دار الوفاء بالمنصورة ط ١،١٤١٦هـــ/ ١٩٩٦م .

* الفـــروق اللغوية لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، تحقيق: عماد البارون، المكتبة التوفيقية بالقاهرة ١٤١٩هـــ/ ٢٠٠٠م .

* فضــــائل القرآن لأبي عبيد الهروي ، تحقيق وهبي غاوجي دار الكتب العلمية ط ١ ، ١٤١١هـــ / ١٩٩١م .

* فضـــل الله الصـــمد في توضيح الأدب المفرد " شرح الأدب المفـــرد للبخاري " لفضل الله الجيلاني المكتبة السلفية القاهرة ط ٣ ، ١٤٠٧هـــ / ١٩٨٧م .

* فـــي ظـــلال القرآن للشيخ سيد قطب ، طبعة دار الشروق ، ط ٨ ، ١٣٩٩هـــ / ١٩٧٩م .

* الكشـــاف لجـــار الله محمـــود بـــن عمر الزمخشري ، دار المعرفة ، بيروت د. ت .

* الكليات لأبي البقاء الكفوي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .

* لـــباب الـــتأويل فـــي معانـــي التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن " تفسير الخازن"، طبعة الحلبي ، ط ٢،١٣٧٥هـ .

* لســـان العرب لابن منظور ، دار صادر بيروت ، مصورة على طبعة بولاق ١٣٠٠هـ .

* المحـــرر الوجـــيز فـــي تفسير الكتاب العزيز لأبي عبد الله عبد الحق بن عطية الأندلسي مؤسسة دار العلوم قطر ، تحقيق عبد الله الأنصاري والسيد عبد الله إبراهيم ، ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

* مســـائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل لمحمد بن أبـــي بكر الرازي تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، ط مصطفى الحلبي القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

* المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، طبعة الهند .

* مسند أحمد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون طبعة مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

* مسند الطيالسي تحقيق د / محمد عبد المحسن التركي ، دار هجر القاهرة ط ١ ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .

* معـاجم مفـردات القرآن : د / أحمد حسن فرحات ، بحث مقـدم لـندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه بالمدينة المنورة ، طبعة خاصة بالندوة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

* معـالم التنزيل لأبي محمد البغوي " تفسير البغوي " مطبوع بهامش لباب التأويل .

* معانـي القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج ، تحقيق : د / عبد الجليل شلبي ، دار الحديث بالقاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

* معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، تحقيق : علي محمد البجاوي

* معجـم ألفـاظ القـرآن الكريم : إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهـرة ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ / ١٩٩٩م الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

* معجـم مقايـيس اللغة لابن فارس اللغوي ، ط دار الجيل ، بيروت، مصورة على طبعة مصطفى الحلبي الثانية بالقاهرة١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

* مغنـــي اللبيب في وجوه الأعاريب لابن هشام ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعة صبيح .

* مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي دار الغد العربي ، القاهرة ط ١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

* مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق :صفوان عدنان داوودي ، دار القلم بدمشق ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م

* من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

* المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على مسلم) لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) .

* مـوارد الظمـآن إلى زوائد ابن حبان لنور الدين الهيثمي ، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، طبعة السلفية ، د . ت .

* نظـم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتب العلمية ببيروت ، د . ت .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٢٢٨ / ٢٠٠٣م

مكتبة
الأزهر الحديثة بطنطا